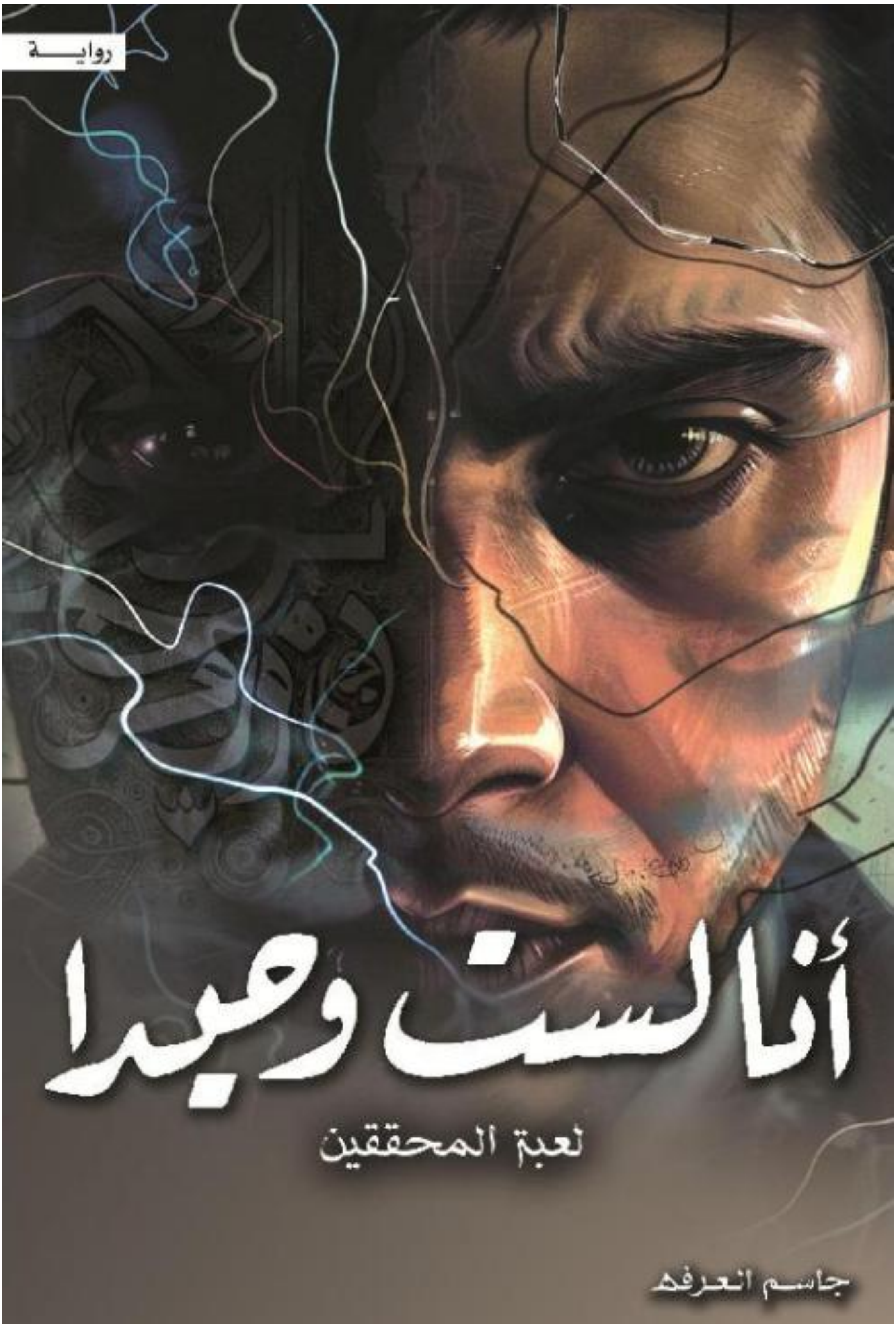

روايــــة
أنا لست وحيدا
لعبة المحققين
جاسم العرفه

رواية أنا لست وحيدًا الجزء الرابع (لعبة المحققين)

جاسم العرفة

«في كون تتشابك فيه أصداء القيم وأطياف الأخلاق، حيث يتلاشى الحد الفاصل بين الخير والشر كضوء الشفق في غسق الليل، ينبثق تحدٍّ فلسفي سرمدي بين محقق الشرطة والمجرم الهارب. هذا التحدي ليس مجرد مطاردة في عالم المحسوسات، بل هو صراع جوهري بين قوًى متضادة تتجلى في الذكاء المستنير والإرادة الحرة العاتية.

كل طرف يسعى، بنهم لا يشبع، لفرض رؤيته الوجودية على الآخر، متطلّعًا لتحقيق انتصار يتجاوز حدود الفعل إلى عمق المعنى. إنه ليس نزاعًا سطحيًّا، بل هو معركة تتغلغل في دهاليز النفس البشرية، حيث تتصارع الأرواح وتتماوج في رقصة القدر التي لا يعرف خاتمتها إلا الزمن الأبدي، ويكتبها بمداد الأسرار الخفية»

جاسم العرفة

الفصل الأول

ربما تجاوزت الساعة الثالثة عصرًا. الشمس الحادة تجعل من الإسفلت عجينةً طرية، فلا يغامر أي مخلوقٍ بالخروج. لا أحد الآن سواي أنا وبعض السحالي المترقبة على جانبي الطريق. أسير ولا أشعر بقدميّ بينما تعبران بين الأزقة. كنت مرغمًا على الإسراع في سبيل إخفاء هويتي على أعين الجوار الذين عاد بعضهم من أعمالهم منذ بعض الوقت مثقلين بالملل، محاصرين بالروتين الذي لطالما أرهقني. قد أُجبَر على قتل أحدهم وهو يحاول استنزاف وقتي الضيّق حينما يصادفني على حين غرة، إذًا فارغًا من كل شيءٍ، من الحنين ومن الألم قررت الابتعاد قدر الإمكان من هنا.

- «كان لزامًا عليّ ترك كل شيءٍ خلفي» .

قلت وقد تيقنت من أخذي طريقًا آمنًا بعيدًا عن البحث المكثف الآنيّ عني، حيث وكما توقعت تم إرسال عدة دوريات خلفي. أحدها وصل إلى عتبة داري، فقد كنت منذ الصباح الباكر أراقب عن كثب، وأنتظر الوقت المناسب لتخف حركة السير، كما علمت أيضًا أنهم سيقومون بتقفيل أثري داخل المنزل، فقمت بخلع الباب الخارجي، فقد كان ظاهرًا للعيان بمجرد أخذ نظرةٍ سريعةٍ عن كثب.

- «لا بد أنهم قاموا بتعميم صورتي على جميع القنوات».

خطرت الفكرة مسرعةً في رأسي، بينما كنت أتسلّل بخفة خلف أحد البيوت في آخر الحي، لكنني توقفت مع دوي صوت صفارة إنذار سيارة الشرطة. سيحاولون بالطبع إغلاق كافة الشوارع المؤدية للخارج. أقلها الشوارع الرئيسة التي تُفضي إلى مدينة

«حِرز» القريبة المزدحمة؛ حتى لا أضيع بين الكتل الشاهقة للأبنية الحديثة والعديدة.

لم يخرج أحدٌ لتقصي السبب، ربما كان الجو الحار أحد الأسباب. رغم معرفتي بالفضول المعشعش داخل نفوس سكان الحي. لطالما كانوا يقحمون أنوفهم الطويلة لتقصي أخبار الجميع ومتابعة كافة الإشاعات والأقاويل أو تأليفها؛ فالملل يصنع الحدث لهؤلاء المتطفلين.

أخذت الدورية مكانها في الطريق المؤدي للتقاطع الرئيس، حيث يلتقي بعد مسافة حوالي 50 مترًا مع الطريق السريع. توجد في بدايته إشارة مرورية، مع كاميرا مثبتة في الأعلى لالتقاط هوية من تسوّل له نفسه تجاوز القانون. لا يحتاج الحي حيث أقطن لأكثر من كاميرا في بدايته ونهايته؛ فكلٌّ حريص على مدخراته، وعلى سيارته التي أخذها عن طريق البنك الذي أعطى لنفسه الإذن بالتحكم بمصير الناس. هناك خلف مكاتبهم تجري العمليات الحسابية بدقة، لإطلاق ميزاتٍ تغري شهية الجميع لأخذ كل شيءٍ بالقسط البطيء. ذلك ما اعتبرته دائمًا دس السم داخل العسل، حيث تعلق طوال حياتك في شرك دفع الرسوم الخانقة التي لا تنتهي.

وقعت عيناي بينما كنت على مقربة من الدورية، على الشرطيين العابسين القابعين داخل السيارة. كنت أستطيع تجاوزهما، لكنني لم أغامر بكشف غطائي الحالي، فقد أجذب انتباه الكثير من أفراد الشرطة المنتظرين خلف الشاشات، حيث يتربصون الآن بشغف لأي حركةٍ غير معتادة. ولن يفوتوا الفرصة في تلميع سجلهم المغبر، وتسجيل قيامهم ببعض الأعمال البطولية في القرية الساكنة.

لكن لن ينفع الانتظار أكثر. يجب القيام بحركة ما تفتح أمامي الطريق، فقد يزداد الخناق ويصبح من الصعب الخروج من الطوق الأمني المفروض على القرية. يجب عليّ الالتفات والمراوغة، وربما العودة بضعة أزقة على أمل إيجاد حلٍّ ما.

- مرحبًا.

قالها الصبي الصغير الذي لم يتجاوز ست سنوات من عمره، بينما وقف أمامي بكل عفويته وبشرته السمراء.

- «ربما يخرج أحد أفراد أسرته للبحث عنه».

فكرت بعد أن أجفلني صوته، لكن لم يطل الأمر كثيرًا حتى سيطرت على الموقف، وجربت تجاوزه دون الخوض في خيار قتله، لذا كان عليّ مجددًا الابتعاد، والإسراع في القفز عن السور الإسمنتي المنخفض. ليس خوفًا من إنهاء حياته؛ لكن نظرة الطفل البريئة أعادتني إلى نقطة ضعفي الأولى.

ظلت عيناه السوداوان الواسعتان تلاحقانني وأنا أمتطي الجدار، قبل أن أنزل في الجهة المقابلة وأبتعد عن حديقة منزله على عجلةٍ من أمري، وبكل خفة قادتني قدماي إلى منازل أخرى، حيث استرقت السمع خلف النوافذ المغلقة بالستائر. أحاول معرفة إن كان أحدٌ ما يتداول خبر هروبي.

لكن لا شيء يدور خلف الزجاج الساخن، حيث أُلصق أذني. لقد اختلفت الأصوات الصادرة بين أهازيج أولاد يلعبون هنا، وبين جدال حادٍّ دار بين رجل وزوجته عن طلبها زيارة منزل أهلها الذين لا يطيقهم في المنزل المجاور هناك.

مضى الوقت أسرع من العادة. كنت أنتظر أن يحل المساء ربما يصبح خروجي عبر أحد الأزقة هينًا، إلا أن صدى سيارة دورية

أخرى قاطعني وهي تطلق صفارتها عبر الشارع، قبل أن تتوقف بالقرب من المنزل الذي أختبئ بجواره. بعد قليل أخذت أجراس البيوت من حولي تقرع واحدًا تلو الآخر. أغلب الظن أنها كانت للبحث عني، أو على الأقل لتحذير قاطني الحي، حتى لا يتورط أحدهم ويفتح الباب. لا بد أنهم يطالبونهم بالتبليغ السريع عن أي غريبٍ يجوب الأنحاء، فالشرطة تنتظر على قدمٍ وساق بالتأكيد لحصار المنطقة على أمل الإمساك بي.

جربت البحث عن مكان أختبئ فيه ريثما تهدأ الأمور.

قد يخرج أحدهم مدفوعًا بحسّه الأمني لتقصي الوضع، واستكشاف محيط بيته، كما يمكن للبعض فقط إزاحة الستائر فأُصبح دون أي غطاء، لذا وكوني لم أجد حولي سوى بضع شجيرات قصيرة من الليمون، كان لزامًا عليّ الاستمرار في التحرك والقفز كالقط، دون أن أترك خلفي أي أثر.

- أنت!!

جاء صوت الرجل الذي وضع يده على كتفي ما أن لامست قدمي عشب حديقته في المنزل المجاور، لا أنكر أنني فزعت للوهلة الأولى. لا بد من أنني كنت تحت المراقبة، حين عبرت المكان في المرة الأولى، ثم وبكل طاقته ودون أن يجعلني أراه قام بليّ يدي خلف ظهري، واضعًا ركبته في منتصف ظهري. كانت قوته هائلة فلم أستطع المقاومة، حيث سقطت على الأرض وهو فوقي يثبت جسدي ويطلق تهديداته التي لا تتوقف.

- ماذا تفعل هنا أيها السارق؟!! أيها اللعين!!

ثم نادى أحد أبنائه الذي خرج على صوته المرتعد فورًا.

- عبد الله، تعال بسرعة!

لو استطعت رؤية وجهه لدخلت إلى عقله وحررت نفسي على الفور، لكن خوفه الشديد من إفلاتي جعله يتمسك كالمفترس الذي يخشى خسارة طريدته.

- أخرج الهاتف من جيبي، واتصل بالطوارئ على الفور. لم يتردد الشاب العشرينين الذي أخطأ بالاقتراب ومحاولة مساعدة والده. رأيت وجهه النحيل الأسمر، وهو يرتدي ثوبه الأبيض الفضفاض. كانت علامات القسوة تلوح على محياه، بينما جلس قبالتي ينظر إليّ بغضب، ويجرب بسرعةٍ وتوترٍ واضحٍ متابعة الاتصال.

أخذت نفسًا طويلًا قبل أن أقتحم رأسه. وقبل أن يتمكن من الإبلاغ عن الحادثة، أفلت الهاتف من يده.

- معك فهد، السلام عليكم.

سمعت صوت موظف الطوارئ وهو يعرف عن نفسه. انتهى كل شيء تلك اللحظة حين نهض عبد الله على الفور دافعًا والده عني، الأخير الذي فوجئ بحركة ولده المباغتة، وهو ينحني لأخذ الهاتف عن الأرض، وصوت الموظف عبر السماعة الصغيرة لا يتوقف عن محاولة معرفة الطرف المتصل، خاصةً بعد أن سمع صدى الجلبة الحاصلة.

- ألو، من مع....

انقطع الصوت بعد عدة ثوانٍ، مع تحطيم الشاب للهاتف على رأس والده، أخذ الأخير بالصراخ من هول الضربات المباغتة من ابنه، وهو لا يعي ما يجري. لم يتوقف الشاب حتى هشم جمجمته، حيث توقف الرجل عن المقاومة وهو يلفظ آخر أنفاسه.

ورغم جمال المشهد لم أستطع البقاء. تسللت بخفةٍ خلف عمودٍ إسمنتيٍّ قريب، لأنه وكما توقعت فقد خرجت زوجته تولول وهي تحمل بين يديها طفلتها الرضيعة، قبل أن تنهار فاقدةً للوعي على الأرض من فظاعة ما رأت، وبين بكاء الصغيرة المرمية على الأرض، وهيجان عبد الله الذي لم يتوقف عن نبش دماغ الجثة الهامدة بيديه العاريتين، دخلتُ إلى المنزل واختبأت في خزانة ملابس إحدى الغرف، ليصدح بعد قليلٍ في المحيط صراخ الجيران على الشاب القاتل في محاولةٍ يائسةٍ لإيقافه، دون أن يجرؤ أحدٌ كما يبدو على التورط بما يجري.

لم تمضِ دقائق قبل أن تتوقف سيارة الدورية في الخارج. ربما قام أحدهم بطلب الشرطة، الذين أخذوا بقرع الجرس وضرب الباب بقبضتهم، لكن دون استجابة أحد. جربوا بعدها ركل الباب بقوة لخلعه لكنه استعصى بوجههم في أول محاولتين، حتى فُتح في المحاولة الثالثة.

سمعت صدى أقدامهم وهي تهرول داخل المنزل للبحث عن الباب المؤدي للحديقة، ولم تستغرق سيارة الإسعاف وقتًا طويلًا قبل أن تصل أيضًا، حيث عَبرَ بعض الممرضين كما يبدو أيضًا خلال الرواق المقابل.

- «الوقت يداهمني».

أفكر بعناصر الدورية الذين سيستوقفهم المشهد. لا بد أن المحقق سامي اجتمع بهم ثم أحاطهم علمًا بقدراتي القاتلة، من أجل ضمان سلامتهم ومحاولة الإمساك بي.

- حمقا!

قلت وفمي يمتلئ بابتسامة ساخرة. يعلم المحقق أنه يدفعهم نحو الهاوية، خاصةً بعد أن اكتشف خطورة ما يمكنني فعله، لكنه بطبيعة الحال يريد تجربة كافة أوراقه، عسى أن ينجح ولو قليلًا بالاقتراب مني. لا أستطيع الجزم بقدرته على ذلك، فمن الممكن أن ينجح فعلًا، حيث أخشى بعد فقداني المجلد أن تتضاءل قوتي مجددًا، إن لم تتلاشَ تمامًا، إضافةً إلى أنه يمكن للخائن خالد أن يضعني على حبل المشنقة، إذا ما أراد. يستطيع تسليم أسرار اللغة إلى سامي الذي لن يتأخر لحظةً في إجباري على الخضوع لأوامره.

ضجت الحديقة بالكثير من الأصوات، بينما لا تزال صفارة سيارة الإسعاف تدوي بشدة. من الأفضل استغلال الجلبة الحاصلة للتملص والانسحاب سريعًا من المنزل. فتحت باب الخزانة على مهل، ووضعت قدميّ على البلاط الأبيض. اقتربت من الباب الذي تركت نصفه مفتوحًا ليتسنى لي الاستماع بشكل أفضل.

كانت أجهزة الاتصال اللاسلكية تصدح في الأرجاء. يحاول أحد الضباط معرفة مجريات الحادثة، ورغم رداءة الصوت كان التوتر واضحًا. سيفرضون طوقًا محكمًا على محيط المكان على مسافة عدة كتل سكنية، هذا ما استطعت سماعه. خاصةً أن صراخ الطفلة زاد من حجم التشويش.

- أحضر النقالة من السيارة.

صاح أحد الممرضين، لتعدو بعدها خطواتٌ سريعةٌ قادمة من الحديقة، بينما أمر أفراد الدورية جميع المتطفلين من الجوار بالابتعاد والعودة إلى منازلهم، وذلك تحت طائلة الاعتقال. من

المؤكد أن أحدهم قام بتصوير الجريمة، ليكون قريبًا صاحب السبق الصحفي في إذاعتها للعلن.

بعد عدة ثوانٍ عاد الممرض مسرعًا، وصرير عجلات النقالة يملأ الممر في الطريق نحو الزوجة المنهارة. كانت تلك اللحظة بالتأكيد فرصتي الذهبية للهرب، لذا ودون أن أنظر خلفي خرجت من الغرفة وتوجهت نحو الشارع.

لا أحد في الخارج سوى سيارات الدورية، وبعض الناس الواقفين على شرفات وأبواب منازلهم. يجرب الجميع تقصي الحقيقة دون أن يحاولوا الاقتراب. بينما وقفتْ على مسافة عدة أمتار سيارة الإسعاف التي تُرك بابها الخلفي مفتوحًا، وفي المقدمة كان هناك السائق فقط، الأخير الذي ارتعد للوهلة الأولى بعد أن رآني قبالة الباب الجانبي، وحدّق بي مستغربًا وجودي المريب.

لم يأخذ وقوفي وقتًا طويلًا. ارتفع بكاء الطفلة التي يبدو أن أحدهم حملها وتوجه للخارج. على الفور قمت بفتح الباب وصعدت جانب السائق بعد أن اقتحمت رأسه، مجبرًا إياه على المضي بعيدًا، وبالفعل أدار المحرك دون أن يتلفظ بكلمة وانطلق بسرعة، حيث ومن خلال المرآة الجانبية، لمحت الممرضين اللذين أحضرا الزوجة المكلومة على النقالة فور مغادرتنا. رأيت أيضًا ذلك الشرطي بعينيه الجاحظتين، وهو يحمل بين يديه الطفلة مصعوقًا بمشهد مغادرة السيارة.

على الرصيف، وقف بعض المارة من سكان الحي متجمعين في جوقة تقصي الحقائق، ولملمة الأخبار والإشاعات. بينما أخذ السائق وتحت تأثير تلاعبي بأفكاره بزيادة السرعة، مما جعل السيارات العابرة تفسح المجال أمامنا، خوفًا من اصطدامنا بهم؛ بسبب السرعة الكبيرة التي قطعنا بها الطريق. بالفعل خرج

أحدهم عن مساره واصطدم بكل رعونة بالرصيف المرتفع، مطلقًا بوق سيارته في تعبيرٍ واضحٍ عن الغضب لما أصابه.

في نهاية الطريق. وصلنا إلى التقاطع الرئيس حيث وقفت في منتصف الشارع سيارة الدورية، بينما خرج منها رجلان مدججان بالحذر والسلاح. حمل أحدهما جهاز إرسالٍ لاسلكيٍّ يخاطب به على عجلةٍ أحدًا ما، ليشير للشرطي الآخر بالتوجه وإيقاف السيارة، قبل أن ينطلق نحونا وهو يلوّح بعصاه التي أخرجها من جيبه الجانبي، ممسكًا بيده الأخرى على ما يبدو قبضة مسدسه، في تهديد واضحٍ لنا بأنه سيقوم عند الضرورة بإطلاق النار.

مرت اللحظات بطيئةً كأنها اقتُطعت من فيلم مطاردةٍ خيالي، حيث رأيت كلا الشرطيين وهما يشيران لنا بالتوقف، وعلامات القلق الشديد تعلو على محياهما، خُيّل لي أنني أَستطيع رؤية قطرات العرق المتصببة على وجهيهما، وهما يحركان شفاههما ببطء شديد. رغم ذلك لم يتزحزحا، لقد صمدا أمام سيارتنا المسرعة على أمل أن تتوقف.

- ابتعدا أيها الغبيان!

صرخت من النافذة، محاولًا أن أجنبهما موتًا قاسيًا تحت العجلات، إلا أن إصرارهما الشديد على إيقافنا لم يزعزع عزيمتهما. مفعمَين بواجب المهنة الذي يدفعهما لاتخاذ هذه القرارات الطائشة، وفي اللحظة التي كان من المفترض أن ينتهيا كأجزاء ملتصقة في الإسفلت الساخن، أوقفتُ السائق الذي استعاد وعيه على وقع صوت الفرامل القوية. أدركت ذلك لاحقًا بعد أن دخلت رأس أحد الرجلين الذي اندفع نحوي، ثم بدل وجهته نحو الرجل الآخر، بعد إجباره على إخراج مسدسه

الأسود من جانبه، ودون أن يعي ما فعل، أطلق خمس رصاصاتٍ شوهت محجري عيني زميله تمامًا، وأخذت بطريقها عينيه الواسعتين، قبل أن تفجر رأسه من الخلف، وتصنع فتحةً كبيرةً سال من خلالها الدم وبقايا الدماغ والشجاعة.

- أحمقُ آخر!

أخذت نظرةً خاطفةً من النافذة والمرآة. لم يبق أحدٌ من الجموع خلفي، غاب الجميع خوفًا من صوت الرصاصات التي دوت في كامل الحي. كان من الخطر البقاء قريبًا لمدة أطول، لذا طلبت من الشرطي التقدم نحوي لتسليم مسدسه وهو في كامل خدره، ثم أشرت للسائق بالمضي نحو الطريق السريع، الأخير الذي انطلق دون أن يلفظ حرفًا رغم أنه استعاد وعيه، وهو يتابع بملء عينيه الحادثة. مصدومًا بما شهده.

اكتشفت حينها أنني لا أستطيع التحكم بأكثر من وعي، لكن المسدس الموجه صوب صدره كان له التأثير ذاته، حيث أجبره على القيام بكل ما أريد. شعرت بجفاف حلقه وهو يحاول ابتلاع لعابه، جف كل شيء فيه، حتى عيناه اللتان أجبرهما على البكاء، مفتعلًا وضعية الحزن والخضوع، لم تذرف دمعةً واحدة تخفف معاناته. على الأقل ليزرع داخلي بعض الرأفة حتى أطلق سبيله.

لم أرغب في رؤية تلك النظرات الضعيفة، ذلك الانهزام والجُبن، لذا توغلت مجددًا في رأسه، راسمًا على وجهه ابتسامةً مفعمةً بالقوة، ونظرةً حادةً توحي بحقيقة ما أريد استشعاره، ثم أخفيت السلاح داخل جيبي الواسع بعد أن انتهت مهمته الحالية.

على الطريق السريع الدولي حيث عبرنا، توجد عدة مفترقات طرق لبعض المدن الصغيرة المنتشرة هنا وهناك.

من الأفضل التوجه لـ «حِرز» أكثر المدن ازدحامًا والأقرب مسافةً، والتي كانت على الجهة المغايرة للمكان الذي أقطنه، وكان لا بد من الاستعجال في التواري عن الأنظار. ربما تغيير السيارة على الطريق؛ فمن المؤكد أنه تم تعميم هروبي بسيارة الإسعاف التي لا يمكن إخفاؤها ببساطة، حتى بعد إيقاف صفارتها المزعجة.

أخذت إذًا أقصر الطرق المؤدية إلى المكان المقصود، المدينة التي تعج بالأبراج السكنية المرتفعة والكتل العمرانية المتلاصقة. المزدحمة بسُكانها وسُيّاحها.

- يجب الوصول قبل أن تغلق كافة الطرق.

قلت وأنا على يقينٍ للمرة الأولى أنني لن أتمكن من مواجهة العدد الكبير من رجال الأمن التواقين للإمساك بي. المترصدين ربما الآن على عدة مفترقات طرقية على أمل أن أعبر أحدها. لا يكون الطريق السريع في جميع الأوقات تقريبًا مزدحمًا، كونه يطل على بعض القرى والمدن الصغيرة والمزارع المنتشرة هنا وهناك، التي يحاول سكانها جاهدين استنبات التربة الصحراوية، بمزروعات تتحمل تقلبات الجو السيئة مثل الذرة والشعير والقمح، حيث الحرارة اللاذعة والغبار الكثيف يعملان معًا وبشكلٍ فاضح على تغيير ملامح كل شيء في المحيط، حتى الناس.

وصلت إلى تقاطع رئيسٍ ذي ثلاث وجهات، وعليّ أخذ أحد تلك الطرق على أمل أن يكون خاليًا حتى الآن. إذا استمررت بالتحرك نحو الأمام فسأصل إلى المدينة الكبيرة، حيث يمكن التخفي

والاختلاط بالناس، مع الحرص على عدم ترك أي أثر خلفي، لكن المسافة طويلة، ولا أستطيع المراهنة على عدم وضع نقاط تفتيش في بداية مدينة مزدحمةٍ واستراتيجية، وبما أنني لا أملك عامل الوقت، كان عليّ الاختيار بسرعة.

- اذهب من هنا.

طلبت من السائق التوجه لجهة الشمال، حيث يمكنني إيجاد أحد التقاطعات، والتسلل لاحقًا إلى أحد الفنادق المكتظة بالغرباء حين تصبح الفرصة مواتية. كان الطريق السريع فارغًا ومستقيمًا حيث استطعت الانطلاق بأقصى سرعة، وعلى طريق الإياب الموازي عبرت مركبة شحن بيضاء طويلة ومغلقة، ثم اختفت خلفي على وقع السرعة الهائلة التي تجاوزنا بها بعضنا بعضًا.

على جهة الشمال، ظهرت معالم محطة وقودٍ صغيرة، وما أن صرت بمحاذاتها حتى طلبت من السائق تخفيف السرعة، وفي نظرة سريعة شاهدت عاملًا ثلاثينيًا، ذا جسدٍ طويلٍ ونحيل. واقفًا على باب المحطة، وهو يشرع بإشعال سيجارته، بينما تم ركن سيارة سوداء صغيرة أمام باب جانبيٍّ أسود للمبنى. من الواضح أن إدمانه الشره على تلك المادة السامة، كان له القدر الكافي من الأهمية ليلغي من قاموسه التزامه بالتعليمات، وخطر اشتعال المواد الخطرة حوله. الأمر الذي دفعني لإيقاف سيارتنا على الفور، وفي منتصف الطريق، قبل أن أمر السائق بالالتفاف عن طريق إحدى الفتحات المتروكة بين الحواجز الاسمنتية، وذلك من أجل العودة إلى حيث كنت أريد الذهاب في المرة الأولى. إلى المدينة.

على الجهة المقابلة أخذ الشاب بمراقبتي وأنا أعبر الشارع، ثم أسرعُ بالقفز عن الجدار الإسمنتي الفاصل بيني وبينه في منتصف الطريق السريـع، إلى أن وصلت إلى المدخل الرئيس للمحطة، مما دفعه إلى إطفاء السيجارة والتوجه نحوي لتقصي ما يريد هذا الغريب.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.

أجابني بينما علت على سحنته معالم الحيرة، مع الاحتفاظ قليلًا بملامح توحي بالثقة والشدة.

- بماذا أساعدك؟

قال بينما كنت أحيك أمرًا آخر في رأسي، وأنا أبادله النظرات. لم أشأ أن أنفصل عن وعي السائق حيث أريد إبعاد الشبهة عن وجودي في مكان آخر، على الأقل أدفعه لإرباك عناصر الشرطة، وأجعلهم يستمرون في مطاردة السراب، فأكسب بعض الوقت للوصول إلى منطقة آمنة.

- أنت! ألا تسمع؟

أشرت له بيدي نحو الباب الأسود الحديدي المغلق، في الجانب الآخر من البناء.

- هل أنت أصم؟

تابع الكلام ويدي لا تزال مرتفعةً باتجاه الباب. مما دفع الشاب للتحرك والاقتراب صوبي أكثر، بينما أخذ يلتفت قليلًا وبارتباك إلى ما أشير.

- لا يوجد شيء، لقد أجفلتني يا أخي، ماذا تريد؟ من أنت؟

قال بصوتٍ ناعم لا يدل على هيئته القاسية، وقد ظهرت عليه معالم الخوف.

- «كيف له أن يظل في هذا المكان وحده، وهو بهذا الجُبن؟!»

فكرت، بعد تحققي من أن سيارة الاسعاف لا بد وأنها أوشكت على الوصول إلى المدينة، لذا زرعت ما استطعت من أفكار برأس سائقها، التي ستعطيني المزيد من الوقت للابتعاد. تأثير سيكوفي قويٌّ للغاية، لكن ورغم أن اللغة عادت لتشرق داخل عروقي، ما زلت أشعر بضعفٍ حين أمارس بعض حيلها. أحتاج للهدوء وتصفية ذهني، لن ينفعني قريبًا هروبي المستمر، ستأتي اللحظة التي أحاصر فيها ولا أجد منفذًا.

- ماذا دهاك يا رجل؟ ومن أنت؟

استجمع الشاب بعض كبريائه ورفع صوته بوجهي.

- أريد أخذ تلك السيارة الآن!

أجبته، وشعرت بالقلق الذي سكن خلده، حيث شد قبضتيه احترازيًّا، وجهّز جسده وضربات قلبه المسرعة للاشتباك معي، وربما للهرب وطلب النجدة. الطريق فارغٌ، ولا يوجد أحد يسعفه، لكنه فاجأني حين التفت للخلف، ثم قام بمناداة شخصٍ آخر داخل المحطة.

- خالد!! تعال بسرعة!

ما أن ذكر الاسم حتى اشتعل الغضب داخل صدري.

- «سأقتل ذلك اللعين حين أجده!».

خرج الشاب الآخر على إثر الجلبة الحاصلة، كانت ملامحهما متشابهة، ولهما الطول ذاته تقريبًا. كأنهما شقيقان. رغم أن خالد كان جسده أكثر امتلاءً، وتوجه كالثور الهائج إليّ. تلك الحركة الاستباقية تدل على تعرضهما سابقًا ربما لمحاولة سرقة. حيث استجمع الاثنان قوتها وزمجرا عاليًا، مطلقين وعيدهما بتسليمي للشرطة إن لم أبتعد على الفور، في محاولةٍ لدفعي خارجًا وإجباري على الهرب.

كانت عينا خالد تشتعلان بالنار، لم يبالِ أي خطر يمكن أن يواجهه، لا بد من أن له باعًا طويلًا في المواجهة والقتال.

- قلت لك ابتعد من هنا!!

أمسكني من يدي التي كانت لا تزال مرتفعة، وأخذ يشد عليها ويعتصرها بعنف. أراد أن يشعرني بقوته الهائلة وقدرته على التغلب عليّ. لا أنكر أن الألم كان شديدًا. لقد أعاد إلى ذهني تلك اللحظة ذكريات والدي بقسوته الكبيرة وبأسه الشديد.

- أريد أخذ..

لم ألحق نطق الجملة السابقة ذاتها، حينها رفع خالد يده للأعلى وقام بصفعي بكل ما استطاع. شعرت بدوارٍ شديد من هول وثقل ضربته.

طنينٌ حادٌّ في أذني لم أستطع مقاومته؛ فأسقطني على الأرض، وسمعت طقطقة حديد السلاح الذي تدحرج من جيبي.

- لديه مسدس خذه في الحال!!

جرى أحد الشابين وحمله بين يديه، بعد أن أشار له شقيقه بذلك.

- قم بتفتيشه يا خالد، ربما يحمل سلاحًا آخر!

شعرت بيديه القاسيتين وهما تنقضان على ملابسي، حيث أخذ بتقليبي كالعجينة محاولًا استكشاف ما يمكن، لكنه يجد شيئًا، لذا ابتعد ووقف فوقي، وأخذ يتشاور مع الاخر الآخر.

- هل نطلب الشرطة الآن؟
- اذهب أولًا إلى الغرفة، وأحضر الحبل الأزرق من الصندوق.

بدأت أستعيد بعضَ تركيزي، وسمعت خطواتٍ تقترب. كان ذلك خالد وقد شمّر عن زنديه العريضين، يريد تحضير نفسه لتثبيتي ومنعي من الحركة، حيث قام برفع جسدي في وضعية الجلوس، قبل أن يقف خلفي ماسكًا رقبتي من الخلف، وبالفعل ما أن خرج شقيقه مسرعًا، وهو يهرول حاملًا بيده ذلك الحبل، حتى سمعت صوت أنفاسه الثقيلة وهي تسقط على رأسي.

- سألقنك درسًا قبل وصول الشرطة.

عبر عن كلامه بأسلوبٍ هزليٍّ ساخر، بعد أن انخفض إلى جانب أذني وهو يعلن انتصاره الكبير.

- خذ الحبل.
- لا أستطيع إفلاته، قم بلفه حول جذعه مع يديه.
- ما رأيك في تثبيت يديه وقدميه معًا؟

تناقش الاثنان حول الطريقة المثلى لربط جسدي. الوقت يداهمني وهذان الساذجان قاما بتأخيري بما فيه الكفاية، عليّ تلقينهما درسًا قاسيًا.

- ماذا تفعل؟!

استغرب خالد محاولة شقيقه ربط قدميه بدلًا من لف الحبل عليّ، فأخذ بالصراخ بغضب، وهو يحاول الركل بقدميه، محاولًا عدم إفلاتي.

- ماجد اتركني، ماذا دهاك؟!

لفظ اسمه للمرة الأولى، وقد امتلأ بالحيرة لما يجري، مما دفعه إلى التراجع للخلف، فقد كاد ماجد أن يشد الوثاق على قدميه، رغم ذلك سقط على الأرض وهو يشتم شقيقه، خاصة حين أوقع السلاح الذي لا أعلم أين كان يحتفظ به.

مرت اللحظة بسرعة، لم يكد يستعيد توازنه، حتى قام الأخ الأصغر بإمساك قبضة المسدس، وإنزالها بضربة هائلةٍ على رأس خالد، مما أفقده وعيه على الفور دون أن يتمكن من الدفاع عن نفسه.

سحب ماجد الجسد الثقيل إلى جانب مضخة الوقود، وجلس قبالته كما أمرته، ثم أشعل سيجارته الأخيرة، وجلس دون حراك. فقط وضع السيجارة بين شفتيه الغامقتين، وأخذ بالاستمتاع بالسم المتغلغل في جسده، نهضت وأخذت السلاح الملقى بجانبي، وتوجهت نحو السيارة. كانت الأبواب مغلقة لذا انطلقت إلى داخل المبنى، وبحثت في الدرج الوحيد لذلك المكتب الخشبي الأبيض.

كانت توجد بعض المفاتيح الأخرى، ودفتر فواتير سميك وبعض الأقلام. أخذت المفتاح الوحيد الذي بدا أنه للسيارة، ومحفظة بنيةً تحتوي المال، وهوية شخصيةً وبعض الوثائق الأخرى، ثم غادرت.

في الخارج لا يزال الطريق السريع قليل الحركة، لحسن الحظ لم تمر أي سيارة لتعبئة الوقود، وماجد يكاد ينهي تدخين سيجارته، بينما شقيقه الفاقد لوعيه غط في سباتٍ عميق. فتحت باب السيارة ما أن وصلت إليها، وصعدت إلى الداخل بعد أن زرعت في رأس ماجد فكرة جنونية، جعلت وجهه يتصبب عرقًا، لكنه لا يستطيع رفض طلبي.

رأيت عروقه المنتفخة في رقبته وهو يتنفس بسرعة، ودموعه النازفة على خديه. كان يجرب مقاومة أوامري ولكن دون جدوى، الأمر محتوم وسيقوم بتنفيذه.

أدرت المحرك، ثم انطلقت عبر الطريق. وعبر المرآة شاهدت ماجد وهو ينهض للمضخة. كان يمكن أن يصبح الوقوف والمتابعة شيئًا مثيرًا؛ لكن لا أملك متسعًا من الوقت.

- الوقت. إنه لعنة أخرى!

عبرت فور خُلو الطريق السريع بأقصى ما استطعت، وأخذت مجددًا نظرةً سريعة إلى الخلف حيث اشتعلت النار، وشبّ الدخان نحو الأعلى. كان موتًا سريعًا ومؤلمًا، لكن توجب عليّ محو كل أثر هناك. يمكن لهذا الحريق أن يفيد في تشتيت ذهن المحقق سامي، الذي سيرسل عدة دوريات لتقصي الحدث، وسأستفيد من تقليص عدد عناصر الشرطة المنتشرين.

كنت أقود بسرعة لكن أغرتني لوحةٌ إعلانية ملونة على يميني للتمهل. على مسافة 500 متر يوجد منتجعٌ سياحي صغير. لقد سمعت عنه لكنني كنت جزءًا من الحي القديم، التصقت بترابه وأشجار ليمونه ونخله. لم أغادر تلك المقبرة الجماعية منذ ولادتي للترفيه عن نفسي، لم أعرف معنى شعور التسلية. كان الموت، الخيانة، الخوف والألم رفقاء دربي لسنواتٍ طويلة.

خففت من سرعتي قبل الانعطاف إلى التقاطع القادم، حيث كانت تشير اللافتات العديدة. كان لمدير المنتجع أسلوب للتلاعب بأذهان الزبائن المتعطشين للاسترخاء، خاصةً الأجانب، وتوريطهم بدفع مبالغ باهظة للنوم على أحد الأسرّة الناعمة، أو الاستمتاع بحمام منعشٍ يرافقه بعض التدليك، تلك الأساليب الملتوية التي ستفرغ جيوبهم من المال، أما أنا فقد اعتبرتها تسولًا وقحًا.

لم أكد أن أنعطف حتى سمعت صوت صفارة قويةٍ قادمةٍ، وبالفعل بدت من بعيدٍ ملامح سيارة الإطفاء القادمة بسرعة، لا أعلم من قام بالتبليغ عن الحادثة فورًا، لذا أسرعت بالانطلاق عبر الطريق الضيّق نحو المكان المقصود. الصحراء على امتداد الدرب تحجب عني رؤية ما يوجد في الأمام، لا معالم للحياة قبل ذلك المنتجع، بل بضع أشجار صبار هنا وهناك تعبّر عن وحشة المنطقة.

كان غروب الشمس وشيكًا. هدير المحرك يصنع موسيقاه الخاصة، بينما ذهني مشغولٌ الآن في البحث عن المحقق، دون أن أستطيع التحصل على أي نتيجة، حتى الطبيب أحمد ما زال منزويًا في المستشفى، لا يغادر غرفته إلا للضرورة القصوى، وقد شغل نفسه بقراءة كتبه الطبية باللغة الفرنسية أحيانًا، الأمر الذي صعّب عليّ قراءة أفكاره، كأنه تقصد ذلك حتى لا أعرف مجريات الأمور. ربما كان اتفاقًا لعينًا. لا يمكنني الجزم بذلك.

- سيندم الغبي على محاولته التلاعب بي.

لم تكد تغادر الشمس الأفق خلفي، حتى لاحت قبالتي بعض الأضواء الطرقية على الجانبين، والتي وضعت كما يبدو في بداية المنتجع لتدلّ الناس عليه. صادفت قبله عدة مزارع أيضًا لم

أشأ التوقف عندها، فلن أكون بمنأىً عن عيون الضباط المتأهبين للانقضاض علي.

- «ربما كان هو».

فكرت وأنا أنظر للمصابيح الملونة أمامي، قد تكون تلك إنارة الترحيب بالزوار. أبطأت من سرعتي وأنا أدخل إلى المكان، حيث استقبلني بعد دقيقةٍ كاملةٍ من وقوفي أحد الحراس. كان الرجل كبير السن لا بد وأنه يعمل هنا من وقتٍ طويل.

- السلام عليكم هل تريد غرفة؟

صوته المخنوق لم يكن واضحًا في البداية، لكن ما أن أعاد السؤال حتى أشرت له برأسي بالموافقة. لم يجر أي حديث آخر بيننا، حيث قام بتوجيهي لركن السيارة في مكان صغير يتسع لبعض السيارات، والذي كان فارغًا تلك الأمسية، وفي الداخل كانت الإضاءة صفراء، ووقف رجلٌ خلف مكتب الاستقبال، أدار ظهره للباب بينما يتابع على التلفاز برنامجًا يتحدث عن الحياة البرية الإفريقية.

صوت التلفاز العالي وانتظاري الطويل دليلٌ على لا مبالاته بالزبائن. لكن الشيء المفاجئ أنه وما أن عبرت المدخل حتى استدار رجل ثلاثيني نحوي، ورسم ابتسامةً عريضة للغاية، ثم أخذ بالترحيب بي معتذرًا عن الصوت المرتفع.

- أرجو المعذرة حركة الزوار هذه الأيام نادرة، ولم أنتبه لقدومك.

استمر بالاعتذار لأكثر من دقيقة، وهو يحاول الالتفاف حولي لمعرفة إن كنت أحمل بعض الأمتعة.

- هل تريد قضاء ليلة أم أكثر؟

- لا أعلم، أنا مرهق الآن.

أجبته بينما كنت أخرج المحفظة البنية من جيبي.

- كم ثمن الليلة هنا؟

الليلة بـ 50 ريالًا شاملةً الفطور فقط، يوجد لدينا حمام ساخن وإنترنت مجاني أيضًا.

يوجد في جيب المحفظة حوالي ثمانين ريالًا، أعطيته المبلغ كاملًا مقابل تلك الليلة، وفي المقابل لم أظهر له هويتي، بما أنني لا أحملها أصلًا. تردد الرجل في قبول النقود الزائدة مقابل عدم تسجيل الهوية. أخبرته أنني فقدتها في المحطة التي أصابها الحريق، وبالفعل كان قد سمع بالحادثة.

- الحمد لله على سلامتك، لقد سمعت عن وفاة شابين في مقتبل العمر هناك للأسف.
- نعم لقد شهدت ذلك، لكن لا أستطيع التحدث عن الأمر.
- لا تقلق تفضل معي سأدلك إلى غرفتك.

عبرت الرواق معه إلى أحد الممرات الضيقة، حيث توجد عدة غرف مرقمة من الواحد إلى الثمانية كما يبدو، وفي نهاية الممر يوجد بابٌ زجاجيٌّ يطل على حديقةٍ خضراء مضاءة، وضعت فيها بعض المقاعد والطاولات الحديدية، لتأمين الخلوة والاستمتاع برائحة الورود المتنوعة.

- هذه هي، أرجو أن تعجبك.

كان الرقم سبعة باللون الأسود منقوشًا على لوحة معدنيةٍ فضية. الحجرة واسعة، وهناك سرير في جهة الشمال، ومكتبة صغيرة فارغة. كما أنهم قاموا بتثبيت تلفازٍ صغير على الجدار، ووضعت الثلاجة في الجهة المقابلة.

لم أنتظر خروج رجل الاستقبال حتى ارتميت على السرير. لم أفكر في مدى خطورة أن يقوم بالإبلاغ عني إن صادف إعلان هروبي في التلفاز، أو على جهازه المحمول، حيث أصبحت الأخبار تنتقل بسرعة عبر تلك الأجهزة اللعينة الصغيرة، كما أنه لم يبدِ أي ردة فعل خائفة حين نظر إلي، ولم أقرأ في رأسه أي أفكار تنبئ بخطوته القادمة. كنت منهكًا من التفكير ومن الجوع. للمرة الأولى أشعر بتلك الحاجة للطعام، لكن قدميّ لا تحملانني على الوقوف وطلب الطعام، لذا استسلمت للنوم والتعب.

- السلام عليكم

استمرت يده في طرق الباب لأكثر من دقيقة، وهو ينادي باسم «بلال» الذي للوهلة الأولى نسيت أنني هو. تأففت قليلًا لكنني أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أجيبه. أحاول تمالك أعصابي قدر الإمكان، فلدي اليوم انطلاقة أخرى إلى مكان جديد.

- ماذا تريد؟
- آسف يا سيدي لكنه موعد الفطور. هل أتركه في الخارج؟
- لا، انتظر.

فتحت الباب، حيث وضعت قبالته عربةٌ صغيرةٌ تحوي عدة أصناف من الطعام. أدخلتها على الفور تحت نظرات الرجل المبتسم، الذي لا يزال يجهل حقيقتي. كان الجوع كبيرًا حيث باشرت بالتهام كل ما في الصحون، دون أن أفكر حتى في غسل يدي، وبعد أن انتهيت أخرجت العربة إلى أمام الباب، ثم انطلقت إلى الحديقة الخارجية. كان لا بد من أخذ نظرة خاطفة عن جمالها، قبل المغادرة.

- في الصحة والعافية.

أجفلني وقوف الرجل، بينما كنت شارد الذهن في روعة الإطلالة. عدت للوراء ومررت بجانبه دون أن ألفظ حرفًا، بعد أن وضعت المفتاح في جيب سترته، حيث انطلقت بعدها إلى السيارة، وأدرتها استعدادًا للمغادرة إلى «حوز».

الحر قادم. استطعت التنبؤ بذلك من حرارة الهواء الخفيف الذي يلفح وجهي. أوقفني للحظة مؤشر الوقود المنخفض، لكن عليّ المحاولة مهما كلفني الأمر.

- سيد بلال!

ارتفع صوت رجل الاستقبال، الذي وقف مناديًا على بوابة الخروج وهو يلهث، ثم اقترب بعجلة حين ضغطت الفرامل.

- لقد نسيته.

لم أتوقع على الاطلاق أن يتجرأ على القدوم، وهو يحمل منديلًا صغيرًا وضع في طياته المسدس الحربي. أخذت عدة ثوانٍ وأنا أتابع لهفته الشديدة، وأفكاره الغريبة، حيث يجول في خاطره أنني أحد أولئك المحققين المتخفين، وأبحث عن مجرمٍ طليق، وألتقط الأدلة هنا وهناك، لكنه لم يجرؤ على التحدث بما يفكر. فقط أعطاني السلاح وتراجع للخلف، واقفًا باستعداد وببسمةٍ يخفيها شاربه العريض.

- رافقتك السلامة.

ابتسمت في وجهه، بعد أن شكرته على حرصه، ثم انطلقت عبر الإسفلت الموشح بالرمال، والبوابة العريضة التي قام الرجل المسن بفتحها منذ الصباح الباكر.

لم يسبق لي أن قطعت كل تلك المسافة. الحياة في الخارج غزيرةٌ بالتفاصيل. الأماكن عديدة للاكتشاف والغوص في

خباياها، ولا أعلم لماذا قررت البقاء في تلك البقعة السامة من العالم. كانت الخيارات متاحةً، إلا أن الخوف من المجهول، كان مرضًا عضالًا لم أستطع مداواته.

كانت ليلةً هادئة. للمرة الأولى أنعم بهذا السلام، ولا أعلم لماذا تركت خلفي أثرًا واضحًا على وجودي في ذلك المكان. نجح الرجلان في تجنب الموت الذي لا يتجزأ مني، الموت الذي أعتاش عليه، وآخذ منه طاقتي على الصمود. غذاء روحي المرهونة لسيكوفي، لغة الناجين من الزحام.

اشتدت الحرارة. أستطيع رؤية لهيب الإسفلت. حرارة السيارة التي تكاد تفرغ من الوقود أخذت هي الأخرى بالارتفاع. لا يوجد على مدى نظري أي محطة تسعفني للاستمرار في التقدم، أو حتى مزرعة تؤويني لأتمكن من البحث عن أي وسيلة للوصول للمدينة.

لم تمضِ دقائق حتى تغيرت الأجواء. هبت الرياح فجأةً وبدأت تعصف بالرمال حولي، ثم أخذت تشتد أكثر وأكثر، حتى حجبت تقريبًا الرؤية على الطريق، جربتُ مقاومة الغبار الكثيف، والاستمرار على النسق ذاته، ملتمسًا ما استطعت من الباقي من أثر للإسفلت، إلى أن استسلمت أخيرًا لغضب الصحراء، التي اتفقت هي الأخرى مع المحقق على شل حركتي، ومنعي من التقدم.

«مجرد أوهام في رأسي!»

قلت بعد يقيني بعدم وصول أحدٍ آخر خلفي في هذا الجو المضطرب، فهذا الطقس متعارفٌ عليه في صحرائنا الشاسعة، وسينتهي قريبًا. الأمر السيئ في ما حصل، أنني وأثناء مقارعتي

للعاصفة، سمعت ضجيجًا من المحرك الذي انطفأ فجأةً، ثم وبدون سابق إنذار جمدت السيارة في مكانها، وقلت لنفسي:

- «يجب أن أسير على أقدامي بمجرد أن تهدأ الريح.»

صفعتِ الرمالُ الزجاج بلا كلل، ومضى الزمن أبطأ مما أحتمل.

«كان من الأفضل أن أبقى...»

راودتني الفكرة بلمح البصر، لكن ظلًّا غريبًا بدا أنه يقترب، قبل أن يتوقف عن الحركة، ويلتف بعيدًا أمامي، ليظهر بعد ثوانٍ مجددًا قبالتي وهو يتحرك يمنةً ويسرةً، ليعود ويختفي مرةً أخرى.

- ما هذا الشيء؟!

قلت ووضعت الطريق نصب عينيّ، حيث لا يفارق الظل الرمال الشديدة، التي لا يمكن لكائنٍ حي أن يحتمل جنونها. من المؤكد أنني أزلت من راسي احتمال وجود مركبةٍ ما، لأن الخيال يتحرك بحريةٍ تامة، وفي عدة اتجاهات، دون أن يخشى عصف الهواء القوي الذي يلسع الجلد بحرارة العالية.

لا أعلم كيف فتحت الباب. أغاظني تمرد الشبح الغريب الذي يحرض فضولي على اللحاق به. هدأ الطقس فور خروجي، أو ربما خفت فعاليته حولي فقط، لأنني لا أزال أستشعر صوت الرمل الذي يضرب جسد سيارتي.

«إنها قدرة سيكوفي الخارقة على منحي الأفضلية والحماية».

فكرت وأنا أبحث في خطواتٍ حذرة، دون أن أفكر في الابتعاد وفقدان المسار الأساسي، لكن صوتًا عميقًا غريبًا شدني للتورط في البحث. جاء الصدى من عدة اتجاهات، متجاوزًا حشرجة

الريح الهابطة، كأنني أقف في غرفةٍ فارغةٍ يكسوها الهدوء الذي تسمع فيه دبيب النملةِ، وامتزج الصوت مع الظل المتنقل. رنوت إلى خياله وهو يقترب ببطءٍ شديد نحوي. لم تكن ملامحه واضحة لكنه كان يدنو بخفة، وكأنه قرر أخيرًا أن يظهر حقيقته، تلك الحقيقة التي كانت مباغتةً وصادمة. خاصةً بعد أن أصبحت خطواته أسرع وهو يزمجر بعنف شديد، لتظهر معها قبل عدة أمتار فقط ملامحه القذرة، وقبحه الذي لم أصادف مثيلًا له في السابق.

- توقف!!

أطلقت عليه قدرة سيكوفي لإيقافه، لكن اندفاعه الجنوني صوبي أفزعني ولو للوهلة الأولى. كان وحشًا هائلًا لا يمكن وصفه، ليس ذئبًا بريًّا ولا ضبعًا، ربما كان هجينًا من عدة وحوشٍ خيالية، وكائنًا خارقًا لا يمكن حتى لقدراتي القاتلة القضاء عليه. أنيابه الحادة تتجاوز طول كف اليد، وعيناه الملتهبتان بالشُّعل السوداء كانتا تفرضان خوفًا لا حدود له.

لو صادف هذا الوحش شخصًا آخر غيري لتوقف قلبه من النظرة الأولى.

اقترب الكائن الشرس أكثر. وقف أمامي بلعابه الذي يسيل، وجوعه الشديد للافتراس. لم أستطع رده، رغم محاولاتي العديدة لإبعاده عن مهاجمتي، مما دفعني للتراجع وعيناي متصلبتان عليه. أحاول العودة للسيارة والاحتماء داخلها، وأنا على يقينٍ أنه قادرٌ على تمزيق الصفيح الثخين بسهولة، بأسنانه القاطعة كالسكاكين، إلا أن غريزة البقاء كانت أقوى، وأعطتني القدرة اللازمة للمقاومة.

مع كل خطوةٍ خطوتها للخلف، كان يتقدم كأنه ظلي المرافق، حتى وبعد دخولي إلى كنف سيارتي، قفز بجسده الهائل فوق غطاء المحرك، واقترب من الزجاج الأمامي، حيث وأقسم بقوة سيكوفي إنني رأيت وجهه يبتسم، وهو يلعق الزجاج المغبر، قبل أن يقف على قدميه الخلفية ويهبط محطمًا الواجهة تمامًا، مهاجمًا جسدي بكل ضراوة. أتمكن من المقاومة. شعرت أن أحدًا ما يجبرني على الخضوع، على الاستسلام، كأن هناك أيدِيًا خفيةً تفتعل رباطًا قويًّا لتثبيتي، وتقديمي وليمةً جاهزة لذلك الوحش الجائع.

كان هجومه سريعًا وخارقًا. مخالبة الملتوية الحادة مزقت صدري خلال ثانية وهو يرفعني نحوه. الألم فظيع جدًّا. رأيت قفصي الصدري يخرج مني، بينما نبش بعنفٍ شديدٍ كأنه يبحث عن شيء. رأيت قلبي وهو يعتصره بمخالبه قبل أن يضعه في فمه ويبدأ بقضمه والتهامه. كان يزأر بجنون.

لا صوت يعلو فوق جحيم غضبه، سوى ألمي العظيم وصراخي الذي لم يتوقف، إلا حين أدركني التعب والدوار، وبدأت بفقدان الإحساس بكل ما يحيط بي، لأغمض عيني بعدها مرهقًا ومتكئًا على المقود الجلدي الأسود الممتلئ بالدماء، حيث جاء رأسي على البوق المزعج الذي انطلق دون توقف.

- يوجد شخصٌ هنا يا أبي.
- هل هو حي؟
- لا أعلم هناك بعض الدماء على وجهه، اتصل بالنجدة.

عادلي الواقع على صدى الأصوات الغريبة. مع استمرار انطلاق البوق. رأسي يؤلمني بشدة. شعرت بيدٍ تمتد لتحسس رقبتي. أحدهم يبحث عن مؤشرٍ ما لبقائي حيًّا، واليد ذاتها التي

ساعدت بتقويم وضعيتي وأرجعتني للخلف، قامت بتقليب وجهي. لا أستطيع فتح عينيّ فالدوار لا يزال يفتك بي. خسرت بعض الدماء التي لا بد أنها السبب في فقداني للقدرة على استيعاب ما جرى.

- إنه هو!
- من تقصد؟ ابتعد قليلًا.

ارتجف صوت الشاب الذي بدا في مقتبل عمره، وهو يخبر كما يبدو والده.

- الرجل المطلوب. تم تعميم صورته اليوم!
- ابتعد عنه. سأطلب النجدة، ولنغادر فورًا!

همس الرجل لابنه في محاولةٍ للهرب. شعرت بخوفهما، ذلك الخوف الذي كان طعامًا لروحي. وطاقتي التي تجعلني أستمر، لذا ما أن استجمعت قوتي حتى استطعت رؤية الاثنين، وهما يهمان بالصعود إلى سيارتهما البيضاء الرباعية الدفع الضخمة. لقد بدا عليهما الترف والرفاهية.

لم يكد ينطلق الأب حتى أخذ لمحةً سريعةً صوبي، فصُدم بي وأنا أبادله النظرات التي أعلنت نهاية كل شيءٍ بعدها. تحت أعين ابنه الشاب الذي شاهد والده يطفئ المحرك، ويقوم بالاتصال بالنجدة مجددًا للاعتراف بالبلاغ الكاذب، ثم يعود أدراجه نحوي.

- إلى أين تذهب يا أبي؟!

ظل يناشده بالعودة دون فائدة، حيث أمرته بالجلوس على الإسفلت قبالة باب سيارتي، لذا اندفع الابن مرتعبًا دون أن يفكر بالنظر لوجهي، كأنه على درايةٍ تامةٍ بقدرتي الخارقة على

اقتحام رأسه، ثم بدأ بسحب والده من تحت إبطيه، مجربًا حمله إلى السيارة، لكن الأخير عانده قبل أن يقف على قدميه، ويسحب عقاله الأسود عن رأسه، ويبدأ بضربه بشدة. ظلت كلمات الشاب تصدح في الأرجاء وهو يناشد أباه بالتوقف، لكن دون جدوى. لقد أجبرته على الاستمرار بضربه إلى أن أُنهك الاثنان، وبدأ الرجل بتكبيل يدي ولده الذي فقد القدرة على المقاومة، ومن ثم تعليقه في مؤخرة سيارته الفاخرة، ليصعد بعدها إلى حجرة سيارته ويقوم بتشغيل المحرك مجددًا. حيث زرعت في رأسه الالتفاف والعودة إلى الطريق السريع رفقة جسد الابن المرتعب والمكبل جيدًا، الذي يحاول الإفلات رغم تعب جسده الملطخ بعلامات الضرب، وأطرافه الواهنة المعتادة على تناول أفخر الأطعمة واللعب وإضاعة الوقت.

تم ذلك بشكلٍ رائع. كان مشهدًا مثيرًا. أعادت لي صرخاته وآلامه الكثير من القوة، استطعت حينها الخروج من باب سيارتي، التي كانت قد اصطدمت بحجر كبيرٍ خارج الطريق، بسبب العاصفة الرملية الأخيرة.

- لم يكن وحشًا إذًا!!

محض خيالٍ صرفٍ اقتحم رأسي، حين تسبب بخروجي عن المسار وقوع الحادث. ليست لعنةً على الإطلاق، بل لا بد وأن الكائن المخيف نعمةٌ حلت عليّ، يجب شكر سيكوفي عليها، لولا سحرها العظيم لما استطعت النجاة بالتأكيد.

التفتُّ خلفي وشاهدت بقايا ثوب الشاب الممزق على الإسفلت. في البعيد ما زال والده يجره خلفه بسرعة. أراه يتقلب في عدة اتجاهات، لكن الصرخات اختفت مع توقف عذابه. لو

جريت خلفه لرأيت خط الدماء المرسوم على الطريق، وبقايا الجلد المحترق الشهي.

حدثٌ طفيفٌ سيشغل رأس المحقق المجهول، ويزلزل كيانه. إن كان خطط لأمرٍ ما فإن كل خططه ستبوء بالفشل.

لا بد وأنه يحصي الثواني ويتشمم الأدلة للإمساك بي. أدرك تمامًا معنى السقوط مجددًا تحت سوط الأسر، لكنه احتمالٌ مستبعد. لا يستطيع أحدٌ الآن إجباري على الخضوع، خاصةً بعد عودة ذاكرتي. سأظل كما كنت ظلًّا لكوابيسهم وجحيمًا لأيامهم.

الآن عليّ الاتجاه للأمام. سيارتي مدمرة. الدرب فارغ، ولا أدرى كم استهلكت من الوقت بعد ذلك الحادث. غادرت الموقع بينما أخذ الدخان المتصاعد من غطاء المحرك يغدو أثخن، وكأنه على وشك الاشتعال، خاصةً في هذا القيظ الشديد، لذا استعجلت في السير. لن يكون هينًا قطع المسافة القادمة، سأمشي على قدمي فوق طريقٍ ينفث الحرارة كأنه يرقد فوق بركان يحتبس الموت، الموت الذي أخشاه، رغم قناعتي التامة بأن سر اللغة يحميني طوال الوقت، أنا الذي أحمل رسالتها وأفكارها، على اختلاف الألم الذي أضطر أحيانًا لمعاشرته.

لم أكد أقطع مسافةً طويلة، حتى نال مني العطش، كما أنني أتعرق جدًّا، لدرجة أن التصقت ملابسي بجلدي. الشعور سيئ لكن لا أملك خيارًا آخر.

«سيتغير كل شيءٍ ما أن أصل إلى حَوز».

أحيك في مخيلتي عدة أحداث تشفي غليلي، خاصةً من خالد، ذاك الخائن الجبان. لا أعلم لماذا تمنعني اللغة من الدخول إلى رأسه، إلى تدبير مكيدةٍ ما للإيقاع به. استعادة ما تم سرقته مني.

«لن تخونني هي الأخرى!»

استرسلت في استحضار الأفكار لأخفف عني وزر ما أشتهيه، فأسوأ حدثٍ يمكن أن يحصل هو اتفاقٌ خفيٌّ بينهما. تابعت المسير وقد خلعت عني القميص الأسود، ومسحت به وجهي المدمّى، ثم جعلته غطاءً يحمي رأسي من الحر الشديد. أدركني التعب ولا أستطيع التوقف أو تغيير الوجهة، لم يتبقَّ الكثير للوصول، لكن أثر الحادث الأخير وضع ثقله على جسدي الذي بدأ بالترنح. فجأةً خطرت في بالي فكرةٌ تبدو مشرقة، حين جال في خاطري رجل الاستقبال في المنتجع، بحيويته وصلابته اللتين يمكن الاستفادة منهما.

وبالفعل لم أستغرق طويلًا حتى توغلت إلى رأسه، ومع بعض الكلمات السحرية من سيكوفي، تمكنت من امتصاص طاقته، وكأنني أتقمص جسده بكامل تفاصيله. استشعرت القوة التي سرت عبر جسدي، هذه القوة دفعتني للانطلاق بسرعةٍ أكبر، دون أي إحساسٍ بالإجهاد أو الظمأ. كأنني لا أزال في صالة الاستقبال، والبرودة المنعشة المنتشرة في محيطها.

استطعت التماس أفكاره الخائفة، وهو يجلس على كرسيه ضربات قلبه يتحسس وجهه. ويمسح الدم النازف عنه. المرتفعة عنونَت الرعب الذي احتل كيانه. لا يعلم ماذا يجري، وكيف فوجئ بكم الألم الكبير، ولم تمضِ ثوانٍ قبل أن يستجمع طاقته المتبقية، ويتجه إلى ممر صغيرٍ خلفه. حيث لاح عبره

باب أبيض قديم. ما أن فتحه حتى ظهر فراشٌ صغيرٌ مرتب، وطاولةٌ جانبية مع بعض الأواني المتسخة فوقها.

لم يخطر في ذهنه أن ينادي الرجل العجوز، أو يتصل بالإسعاف. ربما لم يتخيل حجم الجحيم الذي باغته فجأةً. لم أكن أنوي أذيته لكنه فرصتي للنجاة. أعلم جيدًا أن سيكوفي لن تدعني أستسلم ببساطة، ولا تزال تثبت لي وفاءها الدائم. رُسمت ابتسامةٌ خفيفةٌ على وجهي بينما تابعت العبور بسرعة. عيناي تتفحصان الطريق حولي، بينما فكري صنع جسرًا لا يتوقف عن نقل النشاط إلي.

- يا الله ماذا يجري؟!

صدح صوت الرجل في رأسي، وهو يئن بشدة، حيث اقترب من المغسلة المثبتة في زاوية الغرفة، وبدأ بشطف وجهه بالماء وشرب القليل منه دون فائدة. لم يكن يشعر سوى بالظمأ، بالدماء التي تسيل دون توقفٍ عبر رأسه، رغم عدم وجود أي جرحٍ واضح. التعب أعياه ولا طاقة له على الصمود أكثر. تراجع للخلف، إلى السرير، حيث ارتمى بكامل ثقله. حاول أخذ قسطٍ من الراحة قبل أن يخرج لطلب المساعدة، قرأت تلك الفكرة التي راودت عقله، لذا وجهت سحر اللغة مجبرًا إياه على اتخاذ قرارٍ لا يمكن التراجع عنه.

في لحظة واحدة، والدوار يمنعه من النهوض. بدأ الدم يخرج عبر فمه. أخذ الرجل بالسعال بشدة، والسائل اللزج لا يتوقف عن الخروج، حتى أنه جرب أن يميل جسده ليتمكن من التقاط أنفاسه. أيضًا دون جدوى. قمت بتثبيته مثل قطعة أثاثٍ أخرى مرمية هنا، والدماء تثور من أكثر من موضع، عبر عينيه، أذنيه

وأنفه. ثم انفصل وعيه عني في اللحظة التي أدركت فيها أنه فارق الحياة.

لا أعلم كم مشيت بعدها، لم أشعر بالوقت، حتى القيظ الشديد لم يؤت مفعوله السابق، أفادتني تجربة استنساخ طاقة الرجل، كم هو عظيمٌ أثر سيكوفي، وأعلم جيدًا أن هناك المزيد من الأسرار التي عليّ رصدها، وتحريرها عبر جسدي وأفكاري. لا يمكن تخيل حجم ما أستطيع فعله، الشيء الوحيد الذي لم أتمكن من تعقبه هو أفكار «خالد».

لقد نهل الخائن من قوة اللغة. أنا السبب في ذلك، أنا الذي أرشدته إلى أسرارها الخفية. لا أعلم لم أصبحت على ثقةٍ بأنه يحجب نفسه عني حتى لا أتمكن من الوصول إليه. خاصةً أن المجلد بحوزته، ولا أدري حجم القوة التي يمكن لسيكوفي أن تمنحه إياها، فإن كان سحرها يعتمد على القوة، فخالدٌ يجتازني بمراحل، وربما أغلبه فقط بكوني لا أشعر بالندم.

سقطت الأفكار الخائفة على رأسي، بينما لاح سراب شجرٍ كثيف أمامي، ولا يزال الطريق فارغًا، وشعور غريبٌ داخل رأسي حرضني للانتقال إلى السائق في سيارة الإسعاف، حيث غدوت أراه وأسمعه، محاصرًا من عدة جهات، يرفع يديه للأعلى معلنًا استسلامه، ويصيح بأعلى صوته بأنه لا يعلم ما حصل، بينما يطلب أن يتم سماعه، لكن العناصر الملثمة الشديدة اللهجة، شهرت سلاحها عليه وأمرته بالخروج من سيارته بهدوء، مبيّنًا يديه على الملأ.

رغم أنه عنصر إسعاف، وقد ساهم بالكثير من عمليات إنقاذ الأرواح، إلا أنه وجد نفسه متهمًا بجريمةٍ لم يرتكبها، بأفكاره المشوهة وتوتره الواضح، جرب لغة الحوار، دون أن يفسح

قائد الدورية كما يبدو المجال للسائق لأي مناقشة، لم يعر صوته الخائف أي أهمية، ظل يصرخ بطريقةٍ استفزازية، ويطلق تهديداته للرجل المرتعب. رأيت شاربه الثخين الذي يغطي شفته العليا، وهو ينفث الهواء عبره مثل تنينٍ غاضب، ويقف خلف سيارة الدورية لحماية نفسه من المسعف المسكين.

«لا بد من وضع حدٍّ لهذا»

كفاه من الذل ما حصل له، يجب أن أهدئ روعه، ولو برصاصة طائشة تخرج من سلاح الرجل الأمني المستعر، بعينيه اللتين تشتعلان بالصحراء والقسوة، بأفكاره السوداء التي كانت جاهزةً لتلقي الأوامر، لذا كان لا بد من تخفيف معاناة السائق المسكين، لقد شهد ما لا يحتمل بالتأكيد، وها هو الشرطي يزيل الأمان عن سلاحه، ويتقدم من خلف سيارته نحو الرجل الذي جمد للحظةٍ في مكانه، وربما فكر أنه سينجو أخيرًا من كابوسه اللعين، فلم يتوقع أنه بوصول الرجل إليه، سيفرغ كامل مخزن الرصاص بجسده، وتفتح المقذوفات في لحمه الطري ثقوبًا هائلةً تخرج الدماء كالينابيع.

لم يتطلب الأمر كثيرًا، دفعةُ تحريضٍ خفيفةٌ للرجل المسلح كانت كفيلةً بأن يصب جام غضبه على السائق، رأيت ظلام أفكاره وقسوته الكبيرة، لم يأخذ وقته ولو لجزءٍ من الثانية في التفكير قبل قتل ابن جلدته، ربما لو أمسكت نفسي عن دفعه لاتجه وحده حاملًا قصاصه عبر بضع رصاصاتٍ غاضبة. يولد الإنسان على هيئته كأسًا فارغًا وتملؤه الحياة بحلوها ومرها، الذي تجرعت منه الكثير والكثير، كما الشرطي الواقف قبالة الجثة الهامدة، الشاهد الصامت بأعصابه الثلجية، الذي لم يعد

انتباهًا لزملائه الذين حاولوا إيقافه حرصًا على حياته، والتزامًا ربما بتعليمات المحقق الذي يسعى للإيقاع بي.

- ليس سرابًا، لا بد وأنها حَوز!

قلت وقد أصبحت الأشجار أمامي أكثر وضوحًا، كأنها مزرعةٌ أو منتجعٌ آخر. لذا استجمعت ما بقي لدي من قوة مستعارة وانطلقت. لا يزال الحر ثقيلًا، لكنني أشرفت على الوصول إلى أعتاب المكان.

الجميع يبحثون عني، سيتطلب من المحقق الاستعانة بدوريات من خارج المنطقة ليتمكن من إطباق السيطرة على المساحات الشاسعة لهذه الصحراء.

لو كان باستطاعتي اقتحام رأس المحقق، لربحت الأفضلية ليس فقط في الوقت، لكن بجعل الجميع يصابون بالإحباط، والاختفاء إلى الأبد بعيدًا عن هذه البقعة المقفرة.

أتنازل عن كل شيءٍ، عن اللحظات القليلة السعيدة، عن الخوف، الألم، اللامبالاة، والموت.

«الموت... الموت»

هو خيطٌ رفيعٌ فاصلٌ بين الماضي والمستقبل، يرتّق به الجميع حاضرهم، ليحتملوا الحياة. لم يكن لي خيط، لقد قطعه أبي ليخيط به حذاءه الجلدي، ليتحمّل الرمي أكثر من مرة نحوي، وينجو من تدمير أثاث المنزل، في أكثر حالات أبي عنفًا وهوسًا بالسيطرة.

لفحت وجهي نسمةٌ شاردةٌ شبه باردة، ما أن وصلت إلى أول شجر النخيل الممتد على حوالي أكثر من مئة متر، على جانبي الطريق. اختلفت معالم المكان، فالأشجار مشذبة، والطريق

خالٍ من الأعشاب الشوكية، وهناك لوحة طرقية في منتصف المسافة، وقد عُنونت عليها أماكن الوجهات التالية، حيث أستطيع إدراك المكان الذي أعبره، ولكن قبل أن أصل صدح في رأسي للمرة الأولى، صوت الطبيب أحمد، دون أن أكلف نفسي عناء اقتحام أفكاره.

- سيدي، لقد فككت بعض الرموز، يجب أن تحضر بسرعة!

استوقفني كلامه للحظة، لكنني تابعت السير بعدها، حيث أعلم جيدًا أن القصاصات التي تركتها خلفي ليست سوى رشفة من بحر سيكوفي العميق. الشيء المذهل مقدرة اللغة على تنبيهي لأي خطر وشيك، حتى أحضّر نفسي لتجنبه.

«إنه يحفر قبره»

أفكر بالطبيب. لا داعِيَ الآن لإنهاء حياته، سأدعه يجرب حظوظه على أمل أن يمل من ملاحقتي، يعجبني فيه اجتهاده في عمله، لكنه محاطٌ بالأوغاد، الذين لم أندم لحظةً على قتلهم. هم حطب سيكوفي التي استعرت داخلي، وبيادق حربي القادمة.

لم أكد أصل إلى اللوحة الخضراء، حتى برقت عيناي.

حيث كتب بالخط الأبيض العريض «حوز».

- وصلت أخيرًا!

قرأت اسم المدينة التي ترحب بضيوفها. الملاذ الآمن لما أشتهيه من الوقت الطويل. لذا اندفعت إلى الأمام، وقدماي تسرعان بالسير، مشحونتين بالبهجة، بينما أبحث في رأسي عن مأوىً لا يمكن تَقَفِّيه، ربما أستطيع أخذ غرفةٍ في أحد الفنادق ذات الحركة القليلة، أو ربما أحد المنازل المعدة للإيجار، حتى

لا أثير فضول بعض الدوريات التي لا بد وأنها انتشرت تبحث عني في المدينة.

في نهاية خط الأشجار ظهرت معالم المدينة، لقد أخفاها عليّ هبوب الغبار الكثيف. توجد بعض الأبراج السكنية الحديثة، ومدخلٌ عريضٌ يبدو من حيث أعبر، مزينًا بنبات الجهنمية بأزهاره المتميزة والعديدة. ألوانٌ تضفي على من يزور المدينة للمرة الأولى انطباعًا خاصًا عن جمال هذا المكان.

لكنها لم تؤثر بي ما زالت رائحة أوراق الليمون في الحديقة الخلفية لمنزلنا تعشش في ذاكرتي. حتى النسمات الموشحة بالندى السريع الصباحي ظلت محفوظةً تحت جلدي، ترعشني برودتها وأنا أصنع عالمي الخيالي الصغير، حينما كنت أجتث من الورق قصاصاتٍ تحمل ما أشتهي أن أكونه حين أكبر، ولأن الطريق عليّ مسدود لأختار أكثر من حلم، كان عليّ أن أكتب مهنةً واحدةً على كافة الأوراق الصغيرة، ثم أخلطها في يدي وأرميها على الأرض، وأختار وفق حظوظي ما يمكن أن أغدوه في المستقبل البعيد، فأُفاجأ في كل مرةٍ أفتح فيها إحدى القصاصات وقد كتب عليها رجل إطفاء، لأكرر اللعبة أكثر من مرة، مقنعًا نفسي أنني محظوظ للغاية، لكون القدر اختار عني هذه المهنة الرائعة، حيث يمكن إنقاذ الكثير من الأرواح والأشجار وحتى الحيوانات، خاصةً في ظل هذا القيظ الشديد.

«لا ينبغي إنقاذ الجميع!»

علمت ذلك دائمًا منذ طفولتي، حين مددت يدي مستنجدًا، فتلقيت الضرب والتأنيب، حتى غدوت مستسلمًا، وأنقذت نفسي. لو عاد بي الزمن ألف مرة لما استطعت المقاومة

والنجاة. كان من الأفضل أن أبقى في الظل، وأُعدّ الخطة للانتقام لاحقًا، انتقامٌ لا يمكن تجنبه، نهاية كل شيء وبداية عصر الألم.

قاطعَ أفكاري صوت عجلات قادمةٍ، فالتفتُّ إلى الوراء، وشاهدت سيارةً زرقاء حديثة تتسلل ببطء خلفي، ذات نوافذ زجاجية مطليةٍ باللون الأسود، لا تمكِّنُني من رؤية من في الداخل، ظلت على مشيتها الخفيفة تسير حتى أصبحت بجانبي تمامًا، كأن السائق يريد تفحص شكلي الرث، ووجهي المدمّى وبنطالي الممزق والمغبر. لم أتوقف بل تابعت سَيري نحو المدينة، وأنا أتخيل شكل السائق الذي أبادله النظرات، ذلك الوضيع الذي أجفلني حين استغل شرودي وأطلق بوق سيارته القوي، ثم تباهى بجعل العجلات تدور في مكانها وتترنح يمينًا ويسارًا، لدرجة كاد أن يصيبني، إلى أن انطلق بأقصى سرعة، بعد أن فتح جزءًا صغيرًا من النوافذ، وأطلق ضحكةً ساخرةً عريضة، حيث غاب بعد عدة لحظات عن مدى رؤيتي تمامًا.

- تبًا!!

صرخت وقد استعر الغضب داخلي لتصرفه الطائش، كم تمنيت لو فتح نافذته البغيضة، وأبان لي وجهه، لكنه أبى إلا أن يظهر قذارته وحقارته. لقد ترك لي رائحة وأثر العجلات الضخمة المحترقة على الإسفلت، وبسبب انزعاجي الكبير نسيت أن أنظر إلى لوحة سيارته، كنت استطعت تقفي أثرها في المدينة، رغم أن شكلها ولونها المميزين لن يُخفياها طويلًا.

على مدخل المدينة، توجد بعض المتاجر المتنوعة، مع صالات عرضٍ للسيارات، لكن الهدوء يعم المكان أيضًا خاصةً في مدينة يُفترض أن تغدق بزحام زوارها. يوجد بعض المركبات البعيدة التي تعبر كما يبدو تقاطعًا ما، أما أنا فقد وصلت إلى الشجيرات

المتشعبة الملونة، المثبتة فوق قواعد حديدية مرتفعة تجمّل المشهد العام. مشيت في فيئها حتى وصلت أمام أحد المتاجر الذي اصطفت أمامه بعض السيارات. لم أجرؤ على الدخول حين شاهدت عدة أناسٍ يتسوقون في الداخل.

توجد على المدخل كاميرا مراقبة، إنها واضحة للعيان، رغم أنني في الجهة المقابلة من الشارع، لذا قطعت الطريق، وتخفيت خلف سيارة فضية اللون بعيدةٍ عن مجال المراقبة، ثم جلست خلفها على أمل خروج أحدهم في أقرب وقت.

كان يمكن أن أقتحم المكان وأثير الرعب في قلوب الجميع، لكن لن تتأخر الشرطة في القدوم إن قام أحد ما في الداخل بطلب النجدة، وسأجبر على اتخاذ قرارٍ حاسمٍ لإنقاذ نفسي.

قرارٍ ينتهي بسلب الكثير من الأرواح، ورغم شهيتي الكبيرة للقتل، لكنني وضعت خطةً عليَّ الالتزام بها، حتى أستطيع إيجاد المجلد المفقود.

يتقدم شابان من صالة الألبسة المقابلة صوبي، لن أعيرهما أي أهمية، على أمل أن ينتهي شخصٌ ما من شراء حاجياته؟ والمغادرة قريبًا.

- ماذا تفعل عندك؟

صاح الشاب بصوتٍ حاد، مجربًا إخافتي وإبعادي عن المنطقة، كأنه ظنني أحد المتسولين الذين يشوهون معالم الحضارة الراقية المنتشرة هنا.

- لست متسولًا.

أجبته لأُعلمه أنني فهمت قصده، وأنا أضع رأسي بين قدميَّ مخفيًا ملامحي، لكنه أبى إلا أن يظهر تسلطه.

- أيًّا كنت، لا يمكنك الجلوس هنا، ارحل على الفور قبل أن أطلب الشرطة.
- من أين قدمت؟

طرح الشاب الآخر سؤاله، واقترب مني في محاولةٍ للنظر إلى وجهي، لكنني استمررت في إخفاء هويتي.

- من هناك.

أجبته وأنا أشير بيدي إلى الطريق، حيث الصحراء النائية. لم يصدق الشاب ما أخبرته به، لذا راح يدور حولي مثل مفترسٍ يتفحص هوية طريدته.

- لماذا تخفي وجهك؟!

قال الشاب بتوتر، لكنني لم أجب رغم إصراره الشديد، حتى أنه جرب أن يمسك شعري المليء بالأتربة، إلا أن الخوف الذي ينبعث منه بشكل واضح أوقفه فورًا. أستطيع اشتمام تعرقه وفزعه جيدًا، شعور يثيرني جدًّا، لكنني لا أريد التورط، لا أريد إثارة فضول الناس حولي.

- ألم يسألك لماذا تخفي وجهك أيها الغبي؟! هيا ارفعه قبل أن أجلدك!

هددني رفيقه وقد علا صوته، لدرجةٍ صاح الرجل الذي كما يبدو قام بإرسالهما.

- لم كل هذا التأخير؟ قوما بإبعاده على الفور!

لم يُرق للرجل أن أجلس قريبًا من متجره، حتى لا أفزع زبائنه ذوي المستوى الرفيع، لذا دفع هذين الشابين للتورط معي،

وإبعادي عن المكان. فلم يكن بيدي حيلة سوى الانسحاب والغل يحتقن في صدري.

- أنا ذاهب ابتعدا عن طريقي!

قلت بلهجةٍ غاضبةٍ وأنا أشير بيدي لهما لفتح مجال أمامي للذهاب، وبالفعل لم يتردد الاثنان في تركي أرحل، بعد أن تحسسا خطرًا وشيكًا قادمًا من هذا المتشرد الغريب، حيث غادرا فور نهوضي وابتعادي عدةٍ أمتار عن المكان. سمعت صوت خطواتها وهي تهرول وتقطع الشارع على عجل، دون الالتفاف إلى الخلف. هو شعورٌ تلقائي للجميع ما أن يستشعروا غضبي. إنها عدوى الخوف.

هُزمت من بعض الأشقياء، ليست هزيمةً بالمعنى الحرفي، لكنني غادرت مُرغمًا ومبتعدًا قدر الإمكان عن الكاميرات والدوريات في مدخل المدينة، حيث توجد عدة مفترقات طرق تفضي إلى شارع طويل، وفي كل شارعٍ تنتشر الكتل العمرانية، تكبر وتعلو وتظهر فيها الأبراج السكنية البعيدة المترامية، التي أستطيع من خلالها التواري عن المشهد والاكتفاء بالتحضير للانتقام.

لم تعد قدماي تحملانني على الاستمرار، أنهكني التعب بعد أن استنزفت كل طاقةٍ ممكنة، أعبر مفلسًا بمحفظةٍ فارغة ولا يمكنني حجز مكانٍ يؤويني، هناك أشخاصٌ أمامي يدخلون ويخرجون عبر المتاجر التي فتحت أبوابها للزبائن، أشعر أن النظرات تلاحقني لكنني لا أبالي، كل ما يشغل بالي الآن هو أخذ حمامٍ ساخن والنوم دون أي إزعاج.

وحيث أسند ظهري على عمود الإنارة، لألتقط أنفاسي، يوجد على يميني متجر ألبسة آخر. رجلٌ بمفرده يغادر الباب الأمامي

مرتديًا ثوبه الأبيض، حاملًا في يديه عدة أكياس من الكرتون، تحتوي أغلب الظن على ملابس جديدة، ومتجهًا صوب سيارته التي قام بركنها في الجهة المقابلة من الشارع.

«إنها فرصتي».

خطرت في ذهني الفكرة، بينما أطلقت جسدي المنهك نحو الرجل، حيث مشيت مترنحًا والدوار يفتك بي.

وكانت الشمس على وشك الغروب، حينما صدح صوت بوق سيارة الشرطة على مسافة شارعٍ أو أكثر، في الجهة الخلفية للمتجر.

- يا أخي، يا أخي!

قلت ويداي تشيران له بالتروي قبل صعوده لسيارته الصغيرة، لكنه أبى التوقف بل استعجل في الجلوس خلف المقود، ممسكًا الباب ليغلقه، بعد أن رمى بالأكياس في الخلف.

- اتركني!

صرخ بارتباكٍ حين أمسكت يده تلك اللحظة، لم يعتد التعرض لهذه المواقف، ضربات قلبه تكاد تخرج من صدره، ثم حاول مجددًا الإفلات وإغلاق باب سيارته، لكنني كنت قد اقتحمت رأسه، حيث ابتسم وأشار لي بالجلوس في الخلف، وانطلقت رفقته بين الأزقة الهادئة، إلى أن وصلنا إلى فندقٍ قديمٍ في منتصف المدينة تقريبًا.

بدلت بملابس ثوبًا أبيض جديدًا كان قد اشتراه لتوه، ومسحت وجهي بماء زجاجة صغيرة موضوعةٍ جانبه، ثم أخذت بطاقته المصرفية وبعض الأموال التي حملها في محفظته، قبل نزولي إلى الفندق المحاط بالكثير من الأبنية الشاهقة، ثم أمرته بالانطلاق

بعيدًا عن المكان، حيث انطلق بالفعل لا يدري وجهته، ورافقته إلى أن اصطف في أحد الأزقة الضيقة، وغيرت الأفكار التي حفظها في رأسه.

«لن يتذكر وجهي بعد الآن».

قلت وأنا غارق بجمال سيكوفي، بهذه الموهبة الرائعة.

أكتشف كل يوم مدى قوة سحرها، إنها تخبرني بكل ما أستطيع فعله حين أقرر استخدامها. لا يمكن لعاقلٍ أن يتخلى عن هذه القوة ببساطة.

ما أن فرغت من الرجل الذي استعاد وعيه، لا يعلم ما الذي أوصله إلى حيث كان، حتى استدرت نحو مدخل الفندق الذي يقف أمام بابه شابٌّ ثلاثيني، وظيفته استقبال الزوار وحمل أمتعتهم، وما أن رآني قادمًا صوبه، تقدم على وجه السرعة، بعد أن اصطنع ضحكته الزائفة المعتادة للجميع، على أمل أن ينال القليل من البقشيش حين يفرغ من إيصال حقائب الزبون إلى الغرفة.

- أهلًا وسهلًا يا سيدي. ألا تحمل حقائب؟
- لا أحمل شيئًا.
- لا بأس تفضل، تفضل، سأدلك على الطريق.

انطلق أمامي النادل وهو يشير لي بعينيه باللحاق به، إلى أن وصلنا إلى صالة الاستقبال، حيث يجلس خلف المكتب الصغير رجلٌ يدخل بعض المعلومات على شاشة الحاسوب المسطحة أمامه، لا توجد تقنياتٌ كثيرةٌ هنا، سوى بعض الكاميرات المنتشرة في الصالة، خلف رجل الاستقبال، وفي بداية الدرج الخشبي العريض، الذي يفصل الغرف في الطابق العلوي عن

الصالة، لقد حافظ مالِكو هذا العقار على أصالته وتراثه القديم، برائحة الماضي التي لم أعد أحن لها على الإطلاق.

وقف قربي الشاب على أمل أن أخرج بعض النقود له، عيناه تتفحصان يديّ وأنا أخرج المحفظة من جيب ثوبي، لأطلب من الرجل حجز غرفةٍ لي، والدفع سلفًا لشهرٍ كاملٍ عبر البطاقة المصرفية. لم يتردد الرجل بذلك لكنه طلب تفاصيل الهوية الشخصية، لذا قمت بمناولته إحدى البطاقات التي أحملها، والتي كانت لماجد، الشاب من محطة الوقود.

توقف الرجل للحظة، ما أن أدرك أن هناك خطأً ما، فالملامح تختلف تمامًا عني، ولأتدارك المسألة تسللت إلى أفكاره حتى يصدق أنني الشخص ذاته، وبالفعل تم الأمر وقام بإعطائي مفتاح الغرفة ذات الرقم 4233، المطلة على الشارع من الجهة الخلفية من الفندق، حيث يوجد كما شرح لي تراسٌ واسعٌ يشرف على الحديقةِ المميزة.

استدرت بعد أن أنهت تلك الإجراءات الروتينية، ثم زرعت في ذهنه حذف كل البيانات المقيدة وإعلام الزبائن أن الغرفة غير شاغرة بحجة أعمال الصيانة. لا يزال الشاب خلفي يزرع ابتسامته المبهمة، وينتظرني الإرشادي إلى مكان الغرفة.

- من هنا يا سيدي.

سار حتى أول الدرج ثم فسح لي المجال للعبور أمامه.

أقرأ أفكاره وهو ينعتني بالبخل، شعرت بغضبه، يحمل هذا اللعين الكثير من الظلام داخل صدره، قواه التي يجهلها يمكن أن تحدث الكثير من الضرر، لكنه يستطيع السيطرة على نفسه

بشكلٍ غريب، لا يوجد في فكره ما يظهر ضعفه، بل غضبٌ خالص، وشهيةٌ مفتوحةٌ للدمار قام بلجمها وتحجيمها.

وصلت إلى الغرفة، كانت في منتصف الرواق الطويل تقريبًا، يقابلها غرفة أخرى تحمل الرقم ٩. قمت بفتح الباب وولجت للداخل، ثم نظرت إلى الشاب بضحكته المخادعة، وابتسمت وقمت بإغلاق الباب قصدًا في وجهه، دون أن الفظ حرفًا. كنت أتقصد إثارة جنونه.

«تبًّا لك أيها القذر البخيل!!»

قالها الشاب في رأسه الذي كاد ينفجر، لكنه استدرك الموقف، ثم التف مغادرًا إلى الأسفل. أما أنا، فقد اتجهت من اللحظة الأولى لإغلاقي الباب إلى الحمام، وفتحت الماء الساخن على آخره حتى أصبح من الصعب رؤية ما يوجد في الداخل من كثافة البخار. لم أنل حمامًا كهذا منذ فترة طويلة، لذا استمتعت بكل لحظات وجودي هناك.

ما أن انتهيت حتى خرجت واستلقيت على السرير الواسع، وأغمضت عينيَّ بعد أن زرعت في رأس الشاب ورجل الاستقبال عدم إزعاجي على الإطلاق. كنت بحاجةٍ ماسةٍ لنوم هادئ أستجمع به شتات نفسي. حيث الظلام أوشك على الهبوط، أسدلت جفنيّ المرهقين لاستراحةٍ طويلة لا أعلم متى أصحو منها.

- هات يدك.

يملأ فمي التراب، كأنني في قبر أحاول الخروج، إلا أن يديّ وقدميَّ تتشبث بالأرض، كأنها جذور تمتد داخل التربة الباردة، والشبح الذي يقف فوقي ويمد يديه للمساعدة مناديًا بأعلى صوته، لا

يمكنني إخباره بصعوبة انتشال أطرافي، لكنه يصر على ذلك، كأنه على درايةٍ تامة بما أستطيع.

- هيا يا جاسم، لن ينقذك أحدٌ غيرك!

جربت السعال لأخرج الأتربة، لكن دون جدوى. أخذ الشبح بالاقتراب مني دون أن تبان ملامحه، اختفت يداه.

اشتعلت النار في عينيه ثم انطفأت، واقترب أكثر. أخذ بالتلاعب بما يريدني أن أراه، ظهر بوجه مها، والديدان تخرج عبر جبينها وخديها الناعمين، تلك الديدان التي سقطت فوق وجهي. أحسست بها وهي تنزلق وتحاول حفر طريقها عبر جلدي، كان الألم مبرحًا، يترافق بهمسات مها الخفيفة، بصوتها المعهود.

- خائن... خائن.

ثم تضحك، وتبتعد وتعيد تكرار الكلمة، ولكن بصوتٍ مرتفع أشبه بالبكاء، لتختفي صورتها في لحظةٍ واحدة، ويصبح الشبح أبي، وهو يحمل رأس أمي المقطوع بإحدى يديه، بينما يرفع في اليد الأخرى حزامًا جلديًا له رأسٌ حديديٌّ مدبب. هناك يدٌ ثالثة تمسك بين أصابعها سيجارًا عريضًا أخذ بتشويه الرأس المقطوع. يدٌ رابعةٌ تمتد إلى رقبتي وتجرب خنقي، كان أثرها هائلًا رغم أنني لا أشعر سوى بعينيّ اللتين تراقبان ما يجري، وقلبي الذي يكاد ينفجر ذعرًا ويكرر أبي كلام مها، ويقترب ضاحكًا قبل أن يبدأ بجلد وجهي بالحزام دون توقف.

لا يمكن أن أصف حجم الألم، صراع بقاءٍ يجبرني على المقاومة، أغمض عينيّ لأفكر في حل للنجاة، لكن الألم المفتعل بجسدي يُخرج من رأسي أي حلول تفضي للهرب من مصيدة ذلك الشبح، وكلما أردت الإشاحة بنظري عن الوجوه المتبدلة

القادمة للانتقام، زاد عذابي، حتى ظهور والد مها، ذلك الشيخ القدير، لم يخفف وطأة ما جرى.

أمسك هو الآخر بجفنيَّ، وقام بقطعهما بسكين صغير حتى يجبرني على المشاهدة.

- المجد لسيكوفي، اللعنة عليكم!!

صرخت بكل ما أوتيت من قوة، وأنا أقفز من سريري، بأنفاسي المتقطعة، وتعرقي الشديد. كان مجرد حلمٍ سيئ، حلمٍ مقيت، لا أعلم جذره لكنه محبطٌ جدًّا. خاصةً أنني هنا الضحية، رغم كل الموت الذي سببته، الموت المقدر الجميع من أصادفه، لكنني لست متهمًا بشيءٍ على الإطلاق، لا ذنب لي بما حصل وما سيحصل، لقد اخترت أن أخلص الحياة من قذارتها، وأنتقم ممن دفعني لأصبح ما أنا عليه.

نهضت من فراشي، حين غادرتني مشاعر الإحباط، وكان الضوء يملأ الغرفة، حيث توجهت صوب الستارة وأسدلتها لأخفف من الوهج. في جانب السرير جهاز تحكم للتلفاز المثبت على الجدار المقابل لي، قد تذاع بعض الأخبار المتعلقة بي. قبل ذلك أردت تناول الطعام فالجوع أظهر براثنه الحادة، ويعمل الآن على نهش معدتي. لم احتج الهاتف المخصص للتواصل مع رجل الاستقبال الطلب ما أريد. كان يكفي أن ألج إلى رأسه وأخبره، ليعمل الأخير على إرسال أحدهم لإيصال أفضل الأطعمة الممكنة إلي، وبالفعل لم يمضِ وقتٌ طويل، حتى تم طرق الباب.

- الطعام جاهز.

كان الصوت القادم ناعمًا للغاية، إنها فتاة. لم أتأخر في فتح الباب، هناك رائحة شهية في الخارج.

- السلام عليكم، تفضل بالصحة والعافية.

لا أعلم لمَ ألجمني صوتها، لم أبادر لفعل أي شيء، كأنني أقابل امرأة للمرة الأولى في حياتي، هي الأخرى تنبهت لتوتري، لذا انسحبت بعينيها السوداوين المشقوقتين كفلقتي لوز، بوجهها الأبيض المضيء وحجابها الأسود الذي يغطي رأسها، ويضفي المزيد من الحُسن على بهاء طلتها. انسحبت بعد أن تركت رأسي المحشو بالقتلى ينزف دمًا عبر أنفي، أستطيع عبره تفريغ مساحةٍ تكفي لأستنشق بعض الهواء النقي.

- شكرًا.

قلتها متأخرًا، حيث غادرت الفتاة بالفعل بعد أن تركت عدة أطباق على الطاولة الأنيقة ذات الدواليب، والتي سحبتها للغرفة بعد أن تحققت من نزول الفتاة للأسفل، ثم أغلقت الباب وجلبت الطعام إلى جانب السرير، وأزلت الاغطية التي خبأت أسفلها بعض الأرز واللحم، ومقبلاتٍ أخرى وكأس عصير برتقال طازج.

توجهت للحمام حيث اغتسلت من الدم النازف، وعدت لأباشر الأكل بشراهة، ووجه الفتاة لا يغادر مخيلتي، في المرة الأولى لم أتجرأ على اقتحام رأسها ومعرفة أفكارها، لكن فضولي دفعني لتجربة الأمر.

- هذا غريب!

قلت وقد توقفت عن ابتلاع اللقمة التالية، ظننت أنني بمجرد تخيل ملامحها سأقتحم عالمها الخاص، لكنني لم أستطع، لا

أعلم السبب مطلقًا. ربما كان الدافع هو المؤثر، فأغلب الذين اقتحمت رؤوسهم كنت بحاجة ماسة للوحش الذي يسكن داخلي، هذا الوحش الذي لا يمكن ترويضه سوى بالموت.

أما الآن فقد غدا فضولي لسبر جمال تلك الفتاة مقيدًا، ربما لا يشبع غريزة اللغة سوى المكافأة، ولا جائزة هنا في التفنن في الغزل والتلصص على الجمال. الضوء عدونا المشترك أنا وسيكوفي، لذا لن أتمكن على الإطلاق من معرفة ما يجول في خاطر تلك الحسناء ببساطة، إلا إن سمحت لي بذلك، أو حولت حياتها جحيمًا.

أثّرت مشاعري المضطربة على شهيتي، لذا لم أستطع تناول بقية الطعام رغم لذته، وتراجعت إلى الخلف مستلقيًا على السرير، حيث تناولت جهاز التحكم وأدرت التلفاز.

توجد بعض القنوات المتنوعة المحلية، والتي تبث إحداها أخبارًا اقتصاديةً مملةً، وقناةٌ أخرى يتناقش فيها بعض رجال الدين في موضوعات لا تهمني بتاتًا، إلى أن استوقفتني على الفور صورتي المعروضة على الشاشة، حيث يعلن فيها المذيع نبأً هامًّا:

- «....ولا يزال البحث جاريًا عبر السلطات عن المجرم الهارب، الذي تم تعميم صوره في جميع المحافظات، وإطباق الخناق على الحدود تجنبًا لفراره، لذا يرجى ممن صادف هذا المريض الفار الإبلاغ عنه فورًا، حيث يشدد مسؤول القيادة في الشرطة على الحرص الشديد على توخي الحذر، وعدم الـ...»

لم أستطع الاستماع لصوت المذيع المزعج أكثر من ذلك، لم أتمكن سوى من إطلاق بعض الكلمات التي أقنعتني اللغة

بلفظها، معلنًا معها نهايةً قاسيةً للمذيع. في لحظةٍ واحدةٍ، آلاف المشاهدين رأوا عبر شاشاتهم الصغيرة اختناق الرجل بالماء، حيث خرج من فمه وأنفه دون أن يتمكن أحدٌ من إنقاذه، أو الاقتراب منه وهو ينتفض ويضرب رأسه بالحائط خلفه. لا بد من أن هذا المشهد أرعب الجميع، الذين يحتاجون لرؤية عظمة سيكوفي، وما يمكن لها فعله إن تجرأ أحدٌ على المساس بي.

انتهى الأمر بعد أن قطعوا النشرة الإخبارية، وهم مصعوقون بما حصل، لم يجرؤ أحد بعدها على إذاعة اسمي، قمت بالتقليب بين القنوات لأكثر من مرة، ولا شيء يخرج للعلن، ربما تم تنبيههم على الفور وحجب المشهد عن العامة، رغم أن المشاهد الذي تابع اللقطات لن ينساها على الإطلاق، سيحيا في رعب ما رآه طوال سِنِي حياته البائسة الباقية.

هدأ روعي قليلًا لكن وجه الفتاة لا يزال يربكني، لا أريد الخروج من الغرفة حاليًّا، خاصةً مع دوي صفارات الشرطة في المدينة، لذا توجهت صوب النافذة العريضة، وأزحت جزءًا من الستارة ليتسنى لي رؤية ما في الخارج. حيث يوجد ثلاثة نزلاءَ، يجلس اثنان منهم حول طاولةٍ خشبية، ويسرد أحدهما حديثًا ما بحماسة، بينما يستمع الرجل المقابل بسعادة لما يقصه عليه الآخر، وينفرد النزيل الثالث في زاوية الحديقة، بعيدًا عن ضجة الرجلين وأمامه جهاز حاسوب محمول، ويبدو مشغولًا في العمل. لون بشرته الفاتحة يظهر أنه غريبٌ عن المنطقة، قد يكون سائحًا أجنبيًّا.

ازدادت الأصوات حولي، تدنو وتبتعد، إنهم يبحثون عن إبرةٍ في كومة قش، لا أحد يعلم مكاني، وجميع من قابلتهم قمت بتشويش ذاكرتهم حتى يصعب عليهم التبليغ عني.

أخذني الوقت وأنا أراقب المحيط، حيث قلَّت الحركة بشكل غريب. سيارةٌ مدججةٌ بالرجال وعتادهم وقفت بعيدًا، بالقرب من ركن مجمعٍ سكنيٍّ ضخم، حيث راقبت نزول العناصر الواحد تلو الآخر، قبل أن ينتشروا في عدة نقاط معدة للمراقبة كما يبدو.

تبسمت قليلًا لضعف حيلة هؤلاء الحمقى، لا يستطيعون الاقتراب مني، ولا حتى معرفة مكاني، لكنهم مجبرون على الانصياع للأوامر. لا يكل ذلك المحقق عن ملاحقة شبحي، ربما لو كان بإمكاني رؤية وجهه لتوغلت إلى رأسه وأوقفته تمامًا.

- إنه المنزل!

باغتتني تلك اللحظة خطوات الطبيب أحمد وهو يقترب من مدخل منزلي.

- لم يجد أحدٌ شيئًا منذ أول مرة تمت فيها مداهمة المنزل.
- أعلم، ولكن ربما ترك خلفه قصاصاتٍ أخرى تساعدك.

قال سامي للطبيب، وهما يقتحمان صالة الاستقبال، ويباشران بتفحص الأدلة، كنت أسمع صوته، نبضات قلبه، قناعته الراسخة بأنني أتنصت عليه، لذا كان يجرب تشويه أفكاره والقفز بي من صورةٍ إلى أخرى، حتى يضيّق عليّ الخناق ولا أقدر على الاستماع لصوته ولأفكاره.

- أعد البحث في مكتب والده، ربما خبأ شيئًا.

قال الطبيب للمحقق، إلا أن شيئًا مريبًا يجري، لا أعلم كيف يستطيع أحمد التحايل عليَّ، وبث أفكاره الخاصة البعيدة عن مجرى القضية. تُفتح أبواب وتغلق أخرى، وقد اختفت الأصوات، يتم تقليب بعض الأوراق. رائحتها تعبث في ذهني وتعيدني إلى داخل الجدران، إلى حيث ابتدأ كل شيء.

«ستندم يا أحمد!»

يعبث الاثنان بتفاصيل حياتي السابقة، أما الطبيب فقد استنفد وقته، لا أستطيع الصفح عنه بعد الآن. ستكون هذه فرصته الأخيرة للتراجع عن التورط في مساعدة سامي بأي شكلٍ كان. شعرت بنار تستعر داخل صدري، يجب أن أخرجها حتى لا أكتوي بجحيمها، فما كان عليّ سوى التوجه خارج الغرفة، إلى الممر الطويل، والنزول عبر السلالم، ومن ثم إلى الباب الخلفي الذي يفضي إلى الحديقة.

لم يبالِ الرجلان المشغولان بالأحاديث بوجودي، أما الغريب الآخر فقد نظر إلى مطولًا قبل أن ترتفع ضربات قلبه، بينما لجم لسانه تمامًا، وحاول التوسل حتى داخل رأسه كي أتركه بشأنه، لكنني بحاجةٍ لأشبع جوعي للخوف، وإسكات النار التي تحتل كياني.

أمرت الغريب بالنهوض وحمل جهاز الحاسب، ثم التوجه إلى حيث يجلس الرجلان، رغم تمنعه الشديد ومحاولته الحثيثة ألا يفعل ما يؤمر به، لكنه لم يكن بقوتي، حيث توجه على وجه السرعة، وفاجأهما بضربات الحاسب العنيفة، التي هشمت رأس الأول قبل أن يتجه صوب الآخر الذي لم يدرك ما يجري، وهو يزحف للخلف بعد أن أنهى قَصَّ حكاياته المفعمة بالسرور، ليختتمها الغريب بقصةٍ خارجةٍ عن المألوف، ذات

حبكةٍ دموية خالصة، شوهت وجه الرجل تمامًا، أثارت الرعب في أرجاء الحديقة، حيث خرج رجل الاستقبال وبقية العمال على صياح الرجل الغارق في دمائه.

- اتركه من يدك!

صرخ أحد عمال المطبخ الذي كان يحمل في يده سكينًا كبيرًا لتقطيع الخضار.

- لا أستطيع!

قال الغريب بلهجته الثقيلة، والدموع تحتقن في عينيه، بينما وقفتُ بين الرجال المتجمهرين أشاهد عرضه المثير، وأزيد حماسة الأجواء، خاصة حين دفعت الغريب للانقضاض والإمساك بملعقةٍ فضيةٍ صغيرة سقطت على العشب بفعل العراك الحاصل، ثم التوجه نحو الرجل ذي الوجه المشوه، وغرزها في عينه، ليزيد معاناته، إلا أن الأخير دافع عن نفسه بكل شراسة، قبل أن يتدخل بقية العمال لإبعاد ذاك المعتدي، وتثبيته على الأرض.

ظن الجميع أن الأمر انتهى، وركض نادل عبر الباب الخلفي ممسكًا جهازه المحمول ثم قام بالاتصال بالإسعاف، لكن ما أن أنهى اتصاله حتى باغته العامل صاحب السكين الكبير، بضرباتٍ قاطعةٍ في رقبته، جعلت الدماء تنتفض بغزارة عبر حلقه وتخرج مثل صنبور الماء، ليتجه العامل بعدها إلى الآخرين، ساعدته بنيته الجسدية القوية على طعن كل من كان أمامه، المصدومين من هول ما يجري، ليغدو المكان مسرحًا دمويًّا مثيرًا، حيث الخوف، الدموع، الصراخ كانت تملأ المكان.

«المزيد، أريد المزيد».

لا أتمنى أن تتوقف هذه المسرحية، أصبح أقوى وأكثر تركيزًا مع كل صرخة، مع كل صرخة ألمٍ تصدح، ومع كل لحم يتقطع.

- ساعدني يا سيدي!

لم أنتبه إلى العامل الذي زحف على الأرض وأمسك ثوبي، وهو يستنجد بي، وينزف من عدة أماكن في جسده، لقد لوث الثوب بالدماء، والأتربة. الأمر الذي دفعني لركله بقوة وإبعاده عني. مضت الدقائق القادمة سريعةً. أغلب العمال تم قتلهم، والبقية الذين يسبحون في دمائهم وخوفهم، لن يستطيعوا النجاة بالتأكيد.

استل العامل الأخير القاتل سكينه، وقطع رقبته، بينما كنت أدير رأسي وأهم بالمغادرة، ثم سمعت صوت سيارة الإسعاف قادمة. إذًا عليّ حبس نفسي داخل الغرفة، تحضيرًا لإغلاق الفندق كما خططت، حتى أصبح وحدي داخل جدرانه، وأشيح نظر الدوريات عن المكان المغلق.

لم أكد أصل إلى نهاية الدرج حتى نزل عدة رجال، وهم يحملون سريرًا نقالًا ولا يعلمون حجم الضرر الحاصل في الحديقة، كانت خطواتهم السريعة تضرب الأرض بقوة، إلى أن وصلوا إلى الباب الخلفي، كنت وقتها في الغرفة آخذ نظرةً خاطفة من وراء الستارة. يوجد ثلاثة مسعفين في الأسفل، وقفوا لعدة ثوانٍ يحاولون استيعاب المشهد.

حمل أحدهم جهاز اللاسلكي للإبلاغ عن حاجتهم على وجه السرعة السيارات أخرى لنقل المصابين.

- نعم، يوجد أكثر من ٨ إصابات بين قتيل وجريح، نحاول إسعاف الجرحى حاليًا.

- عُلم... عُلم، تم إرسال الدعم.

أنهى المسعف اتصاله ثم وضع رفقة زميله مصابًا بقي له رمقٌ من الحياة، وباشر الاثنان الهرولة للخارج، والدم يسيل خلفهما على العشب وداخل الصالة الواسعة، بينما تابع الشخص الثالث فحص الرجال الباقين ومحاولة إنقاذ روح أخرى، حيث عبر من مصابٍ لآخر وهو يجس نبضه، ويتفقد إصابته، ليدرك في النهاية أن جميع من هنا قد وافتهم المنية، مما جعله يتراجع عن مسرح الجريمة ويجلس في زاوية بعيدةٍ من الحديقة، في انتظار وصول النجدة.

دوت صفارة سيارة الإسعاف التي انطلقت لإنقاذ الرجل، لتصل بعدها على الفور عدة مركباتٍ أخرى، ويضج الفندق بالأصوات المتلاحقة، التي أظهرت رجال الشرطة المدججين بالسلاح وهم يحيطون المكان بشريطٍ أصفر منعًا لاقتراب أحد، بعد أن طلبوا من المسعف المغادرة.

- من المسؤول هنا؟

سأل رجلٌ طويل القامة ومفتول العضلات، يرتدي بدلةً رسميةً تدل على أهميته، وما أن أطلق سؤاله حتى انتشر بعض الرجال في الداخل يبحثون عن مدير الفندق، ليعود أحدهم بعد حوالي دقيقة رفقة الفتاة الحسناء، وهي تصرخ خائفة، بصوتها العذب المرتجف، قبل أن تنهار وتفقد وعيها ما أن رأت الجثث المكومة أمامها.

- قم بجلب المسعف حالًا!

صدح صوت الرجل العريض، فانطلق أكثر من عنصر لجلب الشاب، ثم طلب من البقية حملها ووضعها في الداخل بعيدًا

عن مسرح الجريمة. بينما بدأ الرجل بتفحص الموتى وتحديد الأدلة، ثم سار حول المكان وهو يأخذ نظرةً دقيقةً للتفاصيل الموجودة، التي يفندها داخل دفتره الجلدي الصغير.

من الزاوية الضيقة لنافذتي رأيت وجهه الكامد، ونظراته التي لا تتوقف عن التحديق بالأشياء، لدرجة كاد أن يراني لولا أنني استدركت الموقف وأخفيت ما بان من وجهي خلف الجدار.

- قم بتفتيش المكان واجمع نزلاء الفندق في الصالة
- حاضر يا سيدي.

أمر الرجل المسؤول رجاله بالتحرك، مما دفعني لإقفال الباب من الداخل، حتى لا يتسنى لهم الولوج، وانتظرت على السرير انتهاء عملية التفتيش، ثم غادر الجميع الحديقة بعد أن تمت تغطية الجثث بشراشف بيضاء.

- لماذا لا أستطيع الولوج إلى رأسه؟!

همست، فقد أقلقني الأمر، خاصةً أنني حفظت وجهه، لكن استوقفني حسيس خطواتٍ قادمةٍ وأصوات أيدٍ تطرق على الأبواب الواحد تلو الآخر، لإرسال النزلاء إلى الأسفل، إلى أن وصل أحدهم إلى باب غرفتي، مجربًا حظوظه بطرق الباب والانتظار، قبل أن يحاول فتح الباب المقفل، ليتوجه بعد أن تيقن من عدم وجود أحد إلى الأبواب المجاورة، مستمرًّا بالبحث عن شاهد ما يستطيع الإفادة في هذه القضية الدموية.

بعد اختفاء الأصوات علمت أن الجميع غادروا وتوجهوا صوب الصالة، حيث سيفتتح الرجل تحقيقه وجمع الأدلة، الأمر المزعج أنني لا أستطيع سماع شيء. لا أريد المغامرة والخروج لتقصي الحديث الجاري، وأفضح نفسي ومكان اختبائي، لكن

الفضول يقتلني، وبينما أضع يدي على قبضة الباب استعدادًا للخروج، دوت أصوات أقدامٍ تقترب، حيث وقفت قبالة بابي تمامًا.

- هذه هي الغرفة؟
- نعم يا سيدي.
- انتظر قليلًا.

رن صوت الهاتف المحمول الخاص بالرجل ذي البدلة، حيث أجاب على الفور.

- لا أستطيع التحدث الآن، قل له المحقق سامي في العمل، وسأعيد الاتصال به قريبًا.

«إنه هو!»

تصلبت في مكاني، وابتسمت في اللحظة ذاتها.

«لم أعلم أن اللقاء سيكون قريبًا...»

قلت في رأسي، ولا أزال أشعر بأثر الصدمة، إلا أن الريبة كانت قاصمةً في تحديد خطواتي القادمة، والسؤال الأهم هنا يبقى: لمَ لا أستطيع الولوج إلى وعيه، وقراءة أفكاره؟

- أين المفتاح؟

قال المحقق للنادل، لكن الأخير الذي يجهل مكانه، أخبره بأن الشاب المسؤول عن تسليم مفاتيح الغرف لقي حتفه في الجريمة، حتى رجل الاستقبال أيضًا لم ينجُ من الحادثة. أخذ سامي وقته بالتفكير ثم غادر مجددًا إلى الأسفل.

- بدأت اللعبة الآن....

قلت بعد أن تيقنت من عدم عودة المحقق أو أحد رجاله إلى الغرفة، ومضى الوقت وكلٌّ حسب دوره يساهم في جمع تفاصيل الحادثة، ورأيت من خلف النافذة المحقق مجددًا وهو يشعل سيجارته الرفيعة، ويسحب الدخان بعمقٍ إلى صدره قبل أن ينفث ما بقي منه إلى الخارج، ولا يزال يدون الملاحظات ويقوم باستجواب بعض النزلاء الذين شهدوا ما حصل.

كانت إحدى الشهادات لرجلٍ خمسيني رسام، مدعمةً بالأدلة، فقد جلس الأخير طوال فترة الظهيرة على تراسه المجاور للحديقة، يمارس هوايته المفضلة بالرسم الفوري، وقد عبر عن طريق الصور المرسومة عن تفاصيل الجريمة الحاصلة بدقة، والتي كانت كافيةً لتشرح لسامي ما حصل، وبالفعل ما أن اقتحمت رأس الرجل حتى شاهدت براعته في تصوير الحديقة، والقتال الجاري، وصولًا إلى العامل الذي قام بطعن الجميع ونحر عنقه.

إحدى الصور استوقفت المحقق، والتي أظهرت جزءًا من جسدي كما يبدو.

- يوجد في الحديقة ثماني جثث، ومصاب تم إسعافه، لكنك رسمت ١٠ أشخاص، من العاشر؟

قال له المحقق بفطنته الواسعة، لكن الرسام لم يستطع معرفة المقصود، لذا كان عليّ التدخل وزرع فكرة تجنب الرجل زرع الشك في صدر سامي.

- لا أستطيع تأكيد العدد يا سيدي، لا أعلم كيف تمالكت أعصابي وأنا أقوم بتلك الرسمة.

أشار سامي لأحد عناصر الشرطة بأخذ وحفظ الصور كأدلة، ومرافقة الرجل إلى السيارة حيث سيكملون التحقيق معه في القسم. لم يقتنع المحقق بكلام الرسام، وبرودة أعصابه التي مكنته من الجلوس ببساطة ورسم جريمة قتل مرعبة تجري أمامه.

كانت الشمس على وشك الغروب، حينما أنهى الجميع عملهم، وقاموا بنقل الجثث من الحديقة، حيث أعطى المحقق أوامره بإخلاء المكان، ونقل كافة النزلاء إلى مكانٍ آخر، استعدادًا لإغلاق الفندق ريثما ينتهي التحقيق، وبالفعل عم الهدوء الجميل المكان، وغادرت المركبات في الخارج وهي تصدح بأبواقها القوية، إلى أن ابتعدت أصواتها تمامًا.

- وأخيرًا!

قلت وقد سارت الخطة كما يجب، حيث أستطيع الآن التنقل بسهولة عبر أرجاء الفندق، وأصبح سيد المكان، وحاكمه، لذا نهضت عن السرير واتجهت صوب الباب، وأنا متحمس لأخذ جولةٍ في المكان، ثم أزلت القفل وقبل أن تدير يدي قبضة الباب وتفتحه، يدٌ أخرى كانت تجرب فتح الباب أيضًا من الخارج...

الفصل الثاني

أنا سامي، ذاك الطفل الذي قضى أوقاتًا طويلة أمام شاشة التلفاز الصغيرة، يتابع مسلسله الكرتوني المفضل «شديد وتمام»، ويمتهن نباهة الضب والجربوع، وذكاءهما وسرعتهما في التخفي والنجاة من عزيز الذي لا يتوقف عن مطاردتهما، وجعل حياتهما جحيمًا.

أنا سامي، وأدرك جيدًا معنى أن تقطن في الريف، وتشب على قصص العجائز، حيث يَسطُر الأجداد أمجادهم على رمل الكثبان الشاسعة، وأوراق الصبار العطشى، والأساطير التي ليس لها قرار. أعلم أيضًا معنى أن تصل إلى مرحلة شبابك، وأنت تفتقد أسس التواصل الحضرية مع أقرانك ورفقائك، فتصبح الخشونة بربرية، والالتزام ضعفًا.

أوصانا والدي الذي تغمده الله برحمته أنا وأخي التوءم عُدي، أن نبتعد عن الخطيئة، وأصحاب السوء، خاصةً بعد أن مكنني وضعنا الميسور، من متابعة تعليمي الجامعي بعيدًا عن حيي القديم، حيث كان لزامًا عليّ الاختلاط مع نماذج مختلفةٍ من الناس، لأن تخصصي المتعلق بالبترول والمعادن الذي اختارته والدتي بالنيابة عني، يتطلب الحضور الدائم، على عكس عُدي عاشق البرية والحيوانات، الذي ورث عن والدي مهنة الزراعة والعناية بحقول التمر والمواشي المتنوعة، التي تعد مصدر دخلنا الممتاز منذ سنين طويلة.

لم أستطع رفض طلب أمي ونصيحتها المتعلقة بضمان مستقبل مهنيٍّ جيد، إلا أنني وبسبب طبيعتي الخشنة في العلاقات، وتزمتي الدائم من الأوامر وعدم انصياعي لرغبات أستاذتي بالمشاركة، شعرت أن ذلك التخصص منفر للغاية،

وأصبح البقاء في حرم الجامعة وحيدًا نوعًا من المتنفس، أراقب الطلاب عن كثب وهم في قمة نشاطهم مسرعين إلى القاعات، أو متجمعين في حلقاتٍ صغيرة يتشاطرون الأحاديث والضحكات والمعلومات.

وصل بي الحال إلى الانعزال التام، والتهرب حتى من الفصول التي تتطلب حضورًا إلزاميًّا يؤثر على الدرجات المتعلقة بالمادة الدراسية. ربما كانت طبيعة المكان، أو جزءٌ ما داخلي يجعلني أبغض البيئة التي اضطررت لمعايشتها، كان من المؤلم إخبار والدتي العزيزة بحالة اليأس الذي وصلت له، لكنها الوحيدة القادرة على فهمي، وأعلم جيدًا أن قلبها الكبير سيصفح عن أهوائي وتقلبات مزاجي السيئة، لذا وقبل انتهاء السنة الدراسية الأولى، لم أجد نفسي إلا مغادرًا حاملًا متاعي، وواقفًا على مدخل القرية، بانهزامي وما بقي من الصبر الذي تنفثه شفتاي الثخينتان.

- أهلًا بالمهندس.

قال بدر، جاري العجوز صاحب الدكان الصغير في أول الحي، حين كنت متجهًا إلى المنزل، فاستوقفني كلامه للحظة قبل أن أرسل له من أسفل شاربي الصغير بسمةً صغيرةً صفراء، وأستمر في طريقي. راقبت بطرف عيني وجهه المدور الأسمر المجعد، وهو يأمل في مبادلة أطراف الحديث معي. إنه رجلٌ طيبٌ لا ذنب له بما يثقل كاهلي، رحلت زوجته منذ ١٨ سنة، بعد سنة من ولادتي، وظل وفيًّا لها يعيش وحده في دكانه القديم.

كان السكان في طفولتي يتناقلون قصته المؤلمة، وكيف رمى بنفسه خلف زوجته التي سقطت في البئر، بدون سبب واضح، وهي تملأ المياه في الدلو الخشبي كعادتها، وحين جاء الجيران

على صوت أنين وبكاء الرجل المسكين، الذي قضى ليلةً كاملة في محاولة إنقاذ زوجته، وجدوه يحتضن جثتها الهامدة، وقد هشم وجهه وكسر إحدى يديه، على أثر السقوط القوي.

سمعت القصة مرارًا وتكرارًا من الأهالي في مراهقتي، ففي خضم الهدوء المسيطر في القرية، تبقى مثل تلك الحوادث عالقةً في صميم الناس، وجرحًا مفتوحًا لا يسكن ألمه، رغم ذلك كانت هناك مساحات فارغةٌ في القصة، خاصةً أن من تناقلوا سردها كانوا يعطون معلوماتٍ متفاوتة.

كنت شارد الذهن وأنا أستعيد تلك الأحداث والحكايات من الماضي، وأفكر للمرة الأولى كيف تم التحقيق في تلك الحادثة، وأفند جميع الأقاويل والتفاصيل المبهمة في القضية، كانت الأفكار تتشابك في رأسي، حتى أني وضعت الطبيب بدر في خانة الشك، خاصةً أنهم قالوا إنه كان يتشاجر مع زوجته كثيرًا قبل وفاتها.

ما أن وصلتُ إلى عتبة منزلنا وفتحت الباب، حتى انطلقت نحو أمي التي فوجئت بقدومي.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام يا عزيزي، هل أنهيت امتحانك الأخير؟
- ابنك سيصبح محققًا!

استغرقها الأمر عدة ثوانٍ قبل أن تستوعب ما أقول، وأنا نفسي لا أعلم كيف خطرت لي الفكرة، لكن السعادة كانت واضحةً على وجهي الكامد، لدرجة لم أستطع تخيلها.

- محقق! ماذا تقول؟ ودراستك؟ ماذا دهاك؟

- أعلم أنكِ تمنين النفس بأن أصبح مهندسًا تفخرين به أمام الناس، لكنني لا أستطيع الاستمرار به يا أمي، أنا أختنق هناك.
- هل جننت؟ كانت تلك رغبة والدك أيضًا رحمه الله.
- رحمه الله وغفر لنا وله يا أمي. لا أريدك أن تحزني لكنني أرى طريقي جليًا، لذا أتمنى دعمك الكامل، لأنك ستفخرين بي بإذن الله.

كانت البسمة ترافق وجهي وأنا أحاول إقناع أمي بما أنوي فعله، لكنها أبت الإنصات مطلقًا، خاصةً أن الناس يتناقلون الأخبار كما الجار العجوز، حيث كنت من القلائل المجتهدين الطموحين لكسر القاعدة التي تصور الشباب، أبناء جيلي الذين يتجهون بغالبيتهم العظمى نحو الزراعة أو تربية الماشية ما أن ينهلوا جزءًا بسيطًا من الكتابة والشعر والحساب، التي تفيد حياتهم البدوية، وكان شقيقي مثالًا واضحًا بالتأكيد، لذا انتظر مني الجميع أن أصبح المهندس المنتظر للاحتفاء بي.

مع ظهور نتيجة الفصل النهائي، والتي جاءت معلنةً فشلي الأول، انشغل به الناس المحبطون حولي. لم أبالِ بكل النظرات التي رأت بي نموذجًا سيئًا لا يستحسن الاقتداء به، وطاردتُ الرغبة المشتهاة، تحت وطأة صمت أمي الخانق، التي لا ترى في الدرب الذي أسلكه سوى المخاطر وانعدام الأمان.

كانت الخطوة الأولى هي تغيير مجالي الدراسي، والحصول على بكالوريوس في التحقق الجنائي، ومن ثم الوصول إلى درجة الدبلوم أو الماجستير إن أردت الوصول إلى هدفي، لأصبح محققًا أو ملازم تحقيق كما هو متعارف عليه. سيؤهلني تحصيلي الدراسي لاحقًا للتقدم إلى اختبار التعيين، لذا كان عليّ

قطع شوطٍ طويل من الالتزام والتعب، والابتعاد مجددًا عن الحي.

ما أن جاءت الموافقة على انتسابي للجامعة، لم أتأخر لحظة في الرحيل. أذكر صباح اليوم الموافق لمغادرتي، استيقظت باكرًا لأجهز حقيبتي وأنا مصممٌ على إثبات نفسي أمام سيل التجربة المليئة بالتحدي، على أمل أن يفخر بي الجميع خاصةً أمي التي لا تزال تتجنب التحدث معي عن خوفها الشديد مما أنا مقبلٌ عليه، حيث أمضيت الأيام الأخيرة وأنا أقرأ وجهها الذي يكتنز بحزنها الدفين.

ما أن انتهيت من جمع ما يمكن أخذه، فتحت باب غرفتي للانطلاق، وفوجئت حين رأيت أمي واقفةً وهي تحمل كيسًا من القنب، وضبت داخله الكثير من المؤونة التي ستكفيني وقتًا طويلًا حتى أستقر هناك، بالإضافة لمبلغ كبير من المال، وكأنها تتوقع أنني لن أعود في القريب العاجل. لم أستطع كبح دمعتي حين انطلقت وارتميت في حضنها، وأنا أعدها بأنها ستفخر بي بالتأكيد. رغم أنها أخفت ضعفها، إلا أنني استشعرته في تنهيدة صدرها، لذا لم أرغب في أي نقاش يؤجج انكسارها، على أمل أن يكون وجود شقيقي القليل الحضور إلى المنزل عزاءً لها.

حملت أغراضي وانطلقت إلى الشارع، وتوجهت إلى تقاطع القرية حيث حركة السيارات قليلةٌ للغاية. بعد طول انتظار لاحت من بعيد حافلة صفراء قديمة الطراز قادمة صوبي. يحمل سائقها المغادرين أمثالي إلى المدينة، هؤلاء الذي يجمعون أحلامهم بين أضلاعهم والكثير من الكثبان الرملية العالقة في مجرى تنفسهم، على أمل أن يصنعوا الفرق هناك،

بعيدًا عن حقيقتهم القاسية، وهم يرتدون ملابسهم النظيفة التي تم كيّها بعناية.

أوقفت السائق وانطلقت، أرخيتُ رأسي على الزجاج الجانبي، أستطلع المساحات الشاسعة من الفراغ، ثم غافلني النوم، إلى أن صحوت على صوت آخر الركاب الذي أخبرني بوصولنا إلى المدينة. بعينيّ المنتفختين واجهت معالم الحضارة الجديدة، الأبنية الحديثة والازدحام والضجيج. كنت مقدمًا على تجربةٍ سأضطر فيها لكسر القشور الريفية عن جلدي الأسمر، لأثبت نجاعتي في هذه البقعة السريعة الإيقاع من الوطن.

واقفًا لا أعلم أين أتجه، أحاول استجماع شتاتي، وأنا غارق في صياح سائقي الأجرة الذين يشهرون عضلاتهم لالتقاط الزبائن الغرباء، خاصةً أمثالي القادمين من الريف، والجاهلين للكلمات المعسولة والمجاملات المنطقة القادمة من أفواهٍ أشبه بالفخاخ

- راكبٌ واحدٌ إلى الجامعة، راكبٌ أخيرٌ إلى الجامعة.

صدح صوت الرجل وهو ينادي بشق الأنفس على الراكب الأخير ليكمل نصاب رحلته، فاندفعت مسرعًا كي أحجز المقعد جانب بقية الشباب المفعمين بالطاقة، وكأنهم مصابون بفرط الحركة، فرط السعادة.

- تفضل!

صاح الشاب الذي أخذ مكانه في المقعد الأول بجانب السائق، بأسنانه الناصعة وعينيه البراقتين، فما كان عليّ سوى الجلوس والاضطرار للاستماع لكمّ الأحاديث الدائرة بين الشبان الثلاثة والسائق، التي تكشف جانبي المنعزل عن الحضارة.

كانت الطرقات المعبدة النظيفة المزينة بالأشجار لافتةً للغاية، لكنني لم أظهر إعجابي أمام المتطفلين، الذين يحاولون افتكاك بعض المعلومات عني، كأي حديث عابرٍ بين غرباء، عن مكان ولادته واسمه ورغبته الجامعية وغيرها من الأسئلة التي كنت أجيب عنها بتحفظ شديدٍ، وبعد إلحاح مزعج مستمر من قبلهم.

لا أدري كيف أمكنني تحمل كم ذاك الغليان في صدري، وعلى طول الطريق أشد على قبضتي لئلا أندم على تصرفٍ طائش، لذا لم أصدق اللحظة التي وصلت بها إلى مدخل الجامعة، حيث انطلقت وأصوات الشبان التي تلاحقني تخدش جمال المكان.

أذكر جيدًا التفاصيل حين أتممت تسجيلي، وغادرت للبحث عن سكنٍ خاصٍّ قريب لطلاب الجامعات، رغم وجود سكن جامعي، إلا أنني لم أفضل أبدًا تقاسم حياتي أحد، لذا وبعد أن استدللت على أحد المنازل الخاصة مع الكبيرة المقسمة لغرفٍ صغيرة، والمصممة لتأجير الطلاب الذكور، قمت بالانطلاق على الفور لأخذ غرفة. كان المنزل يحتوي ثمانيَ غرف، كان أغلبها ممتلئًا، ويشترك في كل غرفة عدة أشخاص لتخفيف عبء دفع الأجرة لصاحب المنزل.

وجدت لحسن الحظ غرفةً فارغةً كنت أول قاطنيها، واشترطت على المالك عدم إحضار أحدٍ ليشاركني وسأتكفل بدفع كامل التكلفة وحدي. لم يرفض بالطبع، فقد انشغل بالمبلغ المدفوع مقدمًا ولكامل الفصل.

أذكر أيضًا شغفي الذي بدأ ينمو، ما أن باشرت اليوم الأول في الحضور، حيث كانت القاعة نصف ممتلئة بالطلاب، يعمها الهدوء والانضباط الضروري للسيرة الذاتية، حيث كان حسن

السلوك أحد أعمدة القبول للوصول إلى ما أريد، لذا قلما كنت أسمع صوتًا مشتتًا جانبيًّا من أحد الزملاء، وأمضيت أفضل سنوات دراستي في الجامعة، وحيدًا لا رفيق لي، أعد الأيام للسنة اللاحقة، وأقضى الليالي في الدراسة والتفوق، وصرت أسمع في كل مرةٍ أعبر بها نحو غرفتي أو خارج القاعة الدراسية، همسات التنمر وأراقب النظرات الساخرة، دون أن أبالي بالأحاديث الدائرة هنا وهناك.

بين الفصلين كان الوقت الذي أقضيه في القرية أشبه بفترة ما بين الشوطين في مباراة كرة قدم نهائية، متحمسٌ للعودة مجددًا إلى المجد الذي أنوي اعتلاءه رويدًا رويدًا، وكانت رؤية وجه أمي التي أخذت تتقبل خياري، بعد أن رأت السعادة الظاهرة على محياي، والنجاح الباهر الذي أصنعه، تعنيني كثيرًا، وسيسعدها ما سأصل إليه لاحقًا بالتأكيد.

أنهيت سنواتي الجامعية بعلاماتٍ باهرة، فانطلقت الدراسة الماجستير والتخصص في التحقيق الجنائي؛ لأغدو لاحقًا ملازم التحقيق الذي أستميت للوصول إليه.

يمر الوقت سريعًا إن كان الهدف أمامك جليًّا! كنت راضيًا رغم مرار التعب الذي قضيته داخل جدران الغرفة، كل شيء يهون أمام القطاف الأخير.

لا أبالغ عندما أقول إنني ابتسمت وحدي وللمرة الأولى من الصميم وأخفيت صوت ضحكتي، حين حصلت على أعلى معدلٍ في الجامعة، وانطلقت بعدها للتقدم إلى مسابقة التعيين، الذي استوفيت كافة شروطه، لتجيء الموافقة على تعييني في فترةٍ قياسية بعد توصية خاصةٍ من أساتذتي في الجامعة، الذين

استبشر واخيرًا بي منذ سنتي الدراسية الأولى، فكانت كلمات المدح والثناء عربون محبةٍ خالصة منهم.

كان الأمر أشبه بالحلم الذي تحقق، حتى نظرات أهالي القرية اختلفت، وزادني إنجازي احترامًا ووقارًا بينهم، لدرجة أن منزلنا لم يخلُ من الضيوف الأسبوع كامل ما أن انتشر خبر وصولي إلى القرية، حيث كانت الوفود تتهافت للمباركة بالضابط الأول للقرية. أُجبرت حينها على مجاملة الجميع وتبادل التحيات والنكات والتملق، بينما أخي يتسمر في الخارج ويطرد الأولاد الملتصقين كالأتربة على السيارة الرباعية الدفع، التي تم تسليمي إياها منذ الأيام الأولى في الوظيفة.

بعد انتهاء العطلة، أخبرت والدتي بضرورة انتقالي بشكل دائم إلى المدينة، فقد صعب علي التنقل يوميًا لمسافة أكثر من ٧٥ كيلومترًا، لذا من الأفضل الاستقرار قريبًا من مكان عملي. ولا تزال صورة وجهها في رأسي، وهي تشيح بنظراتها الحزينة بينما تخبرني بأنه لا مشكلة في انتقالي. ربما كانت تتوقع هذا الأمر عاجلًا أو آجلًا، رغم محاولتي تسليط الضوء على عُدي الذى كنت أعتقد أنه يستطيع تغطية غيابي، لكن في داخلي أعلم جيدًا أن قلب أمي لا يمكن أن ينحاز، ويفضل أحد أبنائها على الآخر.

- اذهب يا بني رافقتك السلامة.
- لا تحزني، سأزورك في نهاية كل أسبوع.

لا أعلم إن خفف وقع كلماتي من احتقان الحزن في محياها الطاهر، لكنني موقن بغصة قلبها الضعيف، فهي وإن أجبرت نفسها على احتمال ابتعادي الطويل في سِنِي دراستي، فهي تدرك الآن أنني قد لا أعود سوى في المناسبات الضرورية، خاصةً أن

وظيفتي تتطلب أحيانًا التنقل بين عدة مناطق، وقد يصعب عليّ الالتزام بالوعد الذي قطعته، رغم أنني وبعد مغادرتي لم أخلف ولمدة طويلة بالعهد، مداومًا على زيارتها في نهاية كل أسبوع.

لم يكن هناك أي عوائق في وظيفتي تستدعي البقاء لأمرٍ طارئ، وشعرت بالروتين يتغلغل كالسم في حياتي المهنية، التي من المفترض أن تثبت قدرتي الهائلة على حل الألغاز، ومطاردة المجرمين والإمساك بهم، لذا وداخل مكتبي الفخم كنت دائمًا على انتظار حدثٍ هامٍّ يكسر هذا الملل المقيت، حتى الاجتماعات المعتادة مع الضباط الآخرين لم تكن سوى لقاءات لتبادل أطراف الحديث، ومعرفة آخر المستجدات والتعديلات والقرارات الجديدة.

في زيارتي الأخيرة للقرية، شعرت والدتي بالإحباط الذي يثقل كاهلي، حيث أخذتُ إجازة لعدة أيام، استغللتها في القيام ببعض الأعمال الزراعية رفقة شقيقي في مزرعتنا الكبيرة، والتي يتشارك عدي إدارتها منذ عديد السنوات مع عائلةٍ طيبة الخلق من القرية، قام بتوظيفها والدي رحمه الله، ولا تزال حتى اليوم.

رغم أنني لم أحبذ يومًا الانخراط في هذه الأعمال، إلا أنني وجدت فرصةً لتعويض بعض الأيام التي كان والدي يطلب فيها مني المساعدة، والإشراف على سير العمل ومساعدة الآخرين، فهو رِزْقنا الذي يتطلب جهدًا عاليًا للاهتمام به. قضيت بالفعل لحظاتٍ ممتعة وأنا أشاهد حماس الجميع وإتقانهم للعمل الموكل لهم، ومضت أيام إجازتي بكل يسر دون أن يعكر صفوها أي مشكلات في الوظيفة أجمل ما فيها أنني تقربت لأخي التوءم المداوم على الابتسام وإلقاء النكات واستعراض سعادته.

جاء اليوم الأخير قبل السفر، كنت في تلك الليلة جالسًا وحدي على تراس المنزل الواسع، أرتشف بسعادةٍ كأسًا من الشاي، وأترك وجهي لتداعبه نسمات الهواء العليلة، بينما يبيت عدي في المزرعة كعادته، ثم رن جرس الهاتف المحمول.

- مساء الخير سامي، ربما كان الوقت متأخرًا، لكن تم الإبلاغ عن جريمة في مستشفى الأمل للأمراض النفسية، عليك الانطلاق بأسرع ما يمكن إلى هناك، وإعلامي بالتفاصيل.
- أمرك يا سيدي.
- برعاية الله.

كان ذلك قائدي في العمل، وقد أنهى الاتصال قبل أن أستفسر عن أي تفاصيل أخرى. نهضتُ على الفور وجمعت أغراضي على عجل وخرجت، دون أن يتسنى لي توديع والدتي التي كانت تغط في نومٍ عميق.

- السلام عليكم، قم بتجهيز دوريةٍ مستعجلة، أنا في الطريق.

قلت لمدير مكتبي المناوب، بينما مزقت سيارتي الريح وأنا أقود بأقصى سرعة، كان الأدرينالين على أعلى مستوىً، إنني متجه إلى قضيتي الأولى لأضع ثقلي في كشف ملابساتها، وتحقيق العدالة.

كانت ضربات قلبي تخفق بشدة، بينما أعض شفتيَّ واضعًا في رأسي عدة تخيلاتٍ المجريات الحادثة، لكن لم أصل إلى حقيقة ما سأجده حين أصل إلى المستشفى، وبينما كنت في خضم الأفكار التي تتقاذفني، رن الهاتف المحمول مجددًا.

- السلام عليكم، الدوريةُ جاهزةٌ ومتأهبةٌ يا سيدي.

- هذا جيد، قم بإرسالها إلى مستشفى الأمل النفسي، سألحق بها قريبًا.

أصبحت الأمور جديةً الآن، عليَّ إثبات جدارتي أمام قائدي الذي اختارني من بين العديد من الضباط الأقدم مني والأكثر خبرة، ستكون بداية مسيرتي كما أردت. عاد ذهني إلى والدتي التي ستصحو دون أن تعلم سر اختفائي، لذا أرسلت رسالة نصية إلى جهاز أخي المحمول، أعتذر فيها عن اضطراري للمغادرة دون توديعه، على رجاء كبيرٍ أن يتأسف لأمي بالنيابة عني.

حين اقتربت من المستشفى، رأيت من بعيد أضواء مركبات تتجمع في الخارج، ثم تبين وقوف سيارة إطفاء رفقة سيارة إسعاف كانت تهم بالمغادرة، بينما وقف على البوابة عناصر الدورية لتأمين ومحاصرة المكان، ومنع المتطفلين من الاقتراب.

نزلت من سيارتي وتوجهت إلى الداخل على الفور، كانت النار التي أخمدها رجال الإطفاء قد التهمت مدخل الباب الرئيس للمستشفى، حتى الصالة الداخلية، بينما تم وضع غطاء أبيض على إحدى الجثث المحترقة، ولا تزال حرارة الحريق تظهر حجم الضرر الحاصل في المكان، والمياه المتلونة باللون الأسود ملأت الأرضية.

- السلام عليكم سيادة الضابط.
- وعليكم السلام، من حضرتك؟
- أنا الدكتور أحمد، كنت مناوبًا حين حصل الأمر.
- من المسؤول عن الحادثة؟

ارتبك الطبيب قبل أن يجيبني، لذا أشار عليّ بالذهاب معه للداخل، إلى باب المصعد. رائحة اللحم المهترئ كانت تصيبني

بالغثيان، لكنها قضيتي الأولى التي يجب أن أحافظ فيها على رباطة جأشي، وأخفي معالم الضعف.

- تفضل من هنا يا سيدي.

قال الطبيب وهو يهم بفتح بابٍ بالقرب من المصعد، يؤدي إلى أحد سلالم الطوارئ كما يبدو، ومشيت خلفه.

يوجد في نهاية السلم طابقٌ أرضيٌّ، مع أبواب حديدية تفصل الممر الطويل مع بعض الغرف القليلة المنتشرة هنا وهناك.

- ماذا يوجد هنا؟

طرحت عليه السؤال وأنا أتمعن التفاصيل بعناية.

- إنه سجن للمستشفى، يرسل إليه أشد المرضى عنفًا، حيث تتم متابعة علاجه عن كثبٍ وبحذرٍ شديد.

كان المكان خاليًا ونحن نعبر إلى نهاية الرواق، وتوجد غرفةٌ ذات باب حديد ثخين، ما أن وصلنا حتى قام بفتح الباب، وإنارة الضوء من الخارج. لا أنكر أن أوصالي ارتجفت حين رأيت الرسومات المحفورة على جدران السجن الضيق.

إنها شعوذاتٌ غريبة تصيب الجسد بالقشعريرة. شرٌّ خالص الشخص لا يمكن أن يكون مجرد مريض عادي.

هكذا كان استنتاجي الأول، بعد أن تمعنت بالجحيم المطلق المنقوش على كامل الجدران. تكاد الرسوم تتكلم ويخيل للناظر أول مرة أنها تتحرك صوبه، لتأخذ روحه.

- ما هذه الغرفة؟

- إنها غرفة القاتل جاسم، لقد تم إرساله منذ عدة أشهر، لكننا لسنا معتادين على التعامل مع هذا النوع من المرضى.
- ماذا تقصد؟
- كان يوحي للجميع بالهدوء والأنس، لكن مع الوقت سم يسري في جدران المستشفى بأكمله.
- تابع.
- نعم يا سيدي، حاول جاسم قتل أحد المرضى لكننا استطعنا والفضل الله إنقاذه في آخر لحظة، ثم قمنا بحبسه هنا لكنه خدع الجميع، واستطاع الهروب بعد أن قتل ثلاثة ممرضين دون أن يقوم بلمسهم.

لم أستطع تصديق ما يردده الطبيب، لذا طلبت منه مشاهدة كاميرات المراقبة، حيث خرجنا مجددًا عبر الممر إلى الطابق الأعلى ومن ثم إلى غرفة الطبيب الذي كان يحتفظ فيها بالتسجيلات.

ظلت الأحداث في الطابق السفلي مبهمةً لي، رغم وصف الطبيب لي لما جرى هناك بحذافيره، وكيف حطم رأس الحارس طلال بالقضبان الحديدية، وأجبر اثنين آخرين على فتح الباب له، لكن الأمر الأكثر رعبًا حينما بدأ بتشغيل شريط المراقبة الذي أظهر المريض الخطير خارج المصعد وهو يشير بيده إلى الممرض، الذي انطلق وعاد بعد قليل ليسكب الوقود ويشعل المكان ويشتعل معه، بينما هرب المجرم عبر الباب واختفى.

- تفضل.

قال لي، وأنا شارد الذهن أعيد تشغيل الفيديو لأكثر من مرة على أمل أن أجد ثغرةً ما أعتمد عليها في تقريري، لن يكون تصديق ما حصل أمرًا هينًا.

- ما هذه القصاصات أيضًا؟!

وضع في يدي بعض الأوراق الصغيرة التي كان قد تركها خلفه المريض، وكانت عبارة عن رموزٍ مشفرة لا تدل على شيء، مجرد خربشات وإشارات تجمع بين الأقواس والدوائر وغيرها، ثم تابع حديثه، وهو يصر على أن المريض يمكن أن يقتحم رأس ضحاياه بطريقةٍ ما.

- أعتقد أنها جزء من تعويذةٍ ألقاها جاسم على الحراس، وأغلب الظن أنه من قتل الطبيبين أدريان وسعيد، منذ فترة قريبة أيضًا.

حاولت حساب الوقت لأعلم أين يمكن أن يوجد المجرم الهارب، فقد مضى على الحادثة أكثر من ساعة، والطريق على امتداد المستشفى فارغ من أي كتلٍ سكنية، توجد فقط بعض القرى الصغيرة المجاورة التي يمكن الجاسم اللجوء إليها، كم تبعد عدة كيلو متراتٍ فقط، ربما لو انطلقت باتجاهها قد أستطيع الوصول إليه قبل أن يتمكن من التخفي.

- أريد رؤية ملفه، قد يكون انطلق نحو مكان يعرفه، منزله مثلًا.

قمت بالتأكيد على الطبيب بعدم نشر خبر قدرات هذا المجرم خارج أسوار المستشفى على الإطلاق، ستظل مجرد شكوكٍ ريثما ننهي التحقيق.

لم يستطع أحمد إخفاء قلقه، لذا حاول الاستفسار عن كيفية الإمساك بمجرمٍ خطيرٍ يقتل من خلال الحلم، ومن خلال التخاطر.

- إن استطاع ذلك فعلًا، فأنت الآن في خطرٍ شديدٍ وعليك توخي الحذر!

أجبته لأؤكد عليه تجنب عمل أي شيء يقود جاسم إليه، ثم طلبت منه جمع كل ما يخص المريض، وإرساله لي مع عناصر الدورية، فتلك أدلةٌ يجب دراستها بشكلٍ مكثفٍ على أمل الحصول على شيء.

- لا أحد يغادر المكان.

قلت لرجال الدورية وأنا في طريق خروجي من باب المستشفى، قبل صعودي لسيارتي ومغادرتي، أثناء ذلك أرسلت بطلب دوريات أخرى لمحاولة حصار وتفتيش بعض القرى القريبة بشكل مكثف، عسى أن نجد القاتل في إحداها.

«يقتل في الحلم!»

خطر في ذهني ما يمكن لهذا المجنون فعله. إنها معضلةٌ حقيقية، لا يمكنني تصديق ذلك لولا أنني شهدت ما جرى تسجيله بأم عيني، لن أرفع تقرير الحادثة حاليًا حتى أنتهي من اللحاق بالقاتل المريض.

على طول الطريق لم أصادف أي أحد، خاصةً أن الليلة حالكةٌ للغاية، لا يوجد أمامي على انعكاس ضوء سيارتي المسرعة، سوى الصحراء بأشواكها وغبارها، بوحوشها البرية الطليقة، ما أن وصلت لأول قرية صادفتها، بمدخلها المعتم، والهدوء يسود المكان، وأهلها النيام لا يعلمون حجم الخطر المحدق بهم،

وعلى مضض قمت بعمل دورية في الشوارع الضيقة، عيناي متسعتان على آخرهما أحاول اقتناص أي حركة مريبةٍ هنا وهناك.

بينما وصلت بعض الدوريات الأخرى إلى قرىً مجاورة، والتي يلتقي بعضها بالطريق السريع. كانت إحداها قرية المريض حيث قمت بالفعل بإرسال بعض الرجال لتقصي منزله، بعد إرسال عنوانه وتعميم صورته، عساه يقع في شرك إحدى سيارات الشرطة الأخرى، رغم أنني لا أنكر خشيني من تعرض أحدهم للخطر، ما زال الشك يساورني حول قدراته الظلامية.

طوال ساعةٍ كاملة كنت أعبر ببطءٍ في الأزقة، دون أن أصادف مخلوقًا يمكنني الاشتباه به، ثم أوقفت السيارة ووضعت سلاحي الحربي على جانبي، وانطلقت لرصد حدائق المنازل القليلة التي صادفتها في جولتي الأولى. تكاد أقدامي أن تلمس الإسفلت الخشن، أحاول قدر الإمكان أن لا أصدر ضجيجًا، ربما كان اللعين يختبئ في زاوية ما، لذا مشيت متيقظًا لأي حركة تصدر حولي، وفتشت بكل حذر وانتباه بين زوايا المنازل الخفية، دون أي أثر على وجوده، ثم عدت أدراجي بعد أن أنهت الجولة، وصعدت إلى السيارة متأهبًا طوال الليل في مدخل القرية، وكنت على تواصل مستمرٍّ عبر جهازي اللاسلكي مع باقي الدوريات.

أمضيت الليلة بأكملها وحدي حتى بزوغ الفجر، ثم وجهت أوامري إلى إحدى الدوريات للتوجه إليّ، واستلام المراقبة، لأن عليّ متابعة البحث في أماكن أخرى. ارتفع صوت الأذان، وبدأ بعض الناس بالخروج والتوجه إلى الجامع الوحيد الذي مررت به في منتصف الساحة العامة، بعد مضي نصف ساعة وصلت الدورية إلى حيث كنت أقف، وكان يوجد في السيارة الأخرى

ثلاثة رجال، حيث عملت على توزيعهم على عدة مفترقات طرق، تؤدي جميعها إلى الطريق العام، مع تعليماتٍ مشددةٍ على تبليغ سكان القرية بوجود مختلٍّ قاتل، لأخذ احتياطاتهم والتواصل مع النجدة، في حال ثبوت مشاهدة أي شخصٍ غريب عن المنطقة.

«لم يكن هناك أحد في منزله»، هكذا تم تبليغي منذ الصباح الباكر، بينما وبسبب نقص عدد الدوريات المرسلة، التي لا تستطيع تأمين كافة الطرق الرئيسة، انطلقت إلى وجهةٍ جديدة. في الطريق شعرت بالنعاس يُخمد طاقتي، لكن لا يمكنني النوم الآن، لن أعطي ذاك المريض الفرصة للابتعاد. مع شروق خيوط الشمس الأولى، شعرت بحرارتها المرتفعة، يومٌ حارٌّ يزيد سخونة البحث، هذا ما كان ينقصني!

عبرت الطريق الطويل لا أكف عن مخاطبة باقي الدوريات، والتحقق من يقظة الجميع، إلى أن وصلت إلى حدود قرية نائية صغيرة. يوجد فيها بعض المنازل القديمة الطراز، مع مزارع منتشرة في محيطها لتربية المواشي. على يميني كان هناك راعٍ يقود قطيعًا كبيرًا من الأغنام، بينما امتلأ الشارع الرئيس الذي يفضي إلى الداخل بالحفر والحجارة، يبدو أن جميع الأهالي تعايشوا مع هذا النوع من الفوضى.

لم أعبر على الإطلاق منطقة مهملةً وغير لائقة بالحياة كهذه المنطقة.

- **من المقر الرئيس، تم التبليغ عن جريمةٍ في قرية زهور الليمون، يرجى توجه أقرب دورية إلى المكان.**

قبل أن ألج عبر الشوارع المحفرة، جاء البلاغ الذي يضيق دائرة الشك. ضغطت الفرامل على الفور ثم التففت منطلقًا إلى مكان الإحداثيات التي تم إرسالها للجميع.

- لتتوجه الدوريات إلى الموقع وبالسرعة القصوى، وتحاصر جميع مداخل القرية.

تلاشى النعاس والتعب لحظة سماعي الخبر، ومتحمسًا للوصول شققت طريقي بسرعة هائلة، كأن شيئًا يخبرني بأن الجريمة الحاصلة كانت من فعل جاسم.

- من اثنين إلى عقاب، تم إغلاق مدخل الطريق السريع.

بعد قليل وصلت دوريةٌ أخرى إلى مدخل زهور الليمون من البوابة الثانية الرئيسة، حيث تم الإخبار عن إغلاقهم خط السير الذي يقسم القرية إلى شطرين، وتجهزهم لأي طارئ.

لا أعلم كم استغرقت من الوقت للوصول، لكن بانت مشارف المنطقة المنشودة أمامي، بينما كنت شارد الذهن أفكر في احتمالية ما يمكن لهذا الوغد فعله، ولا أنكر القلق الذي يعتريني.

- ثلاثة إلى عقاب، نحن على مدخل الباب، سنقوم بالمداهمة الآن.
- بحماية الله، سأكون خلفكم بعد دقائق.

سمعت صوتًا يشبه القنبلة وأنا في سرعتي القصوى، وتمايلت سيارتي بشكلٍ جنونيٍّ، لكنني تشبثت بأقوى ما يمكن بالمقود. حصل كل شيء في أقل من ثانية. انفجر الإطار الخلفي على أثر الاهتزاز وحرارة الاحتكاك مع الإسفلت، لكن والشكر لله استطعت التوقف دون أن أصاب بأذىً. لا اعلم كم وصلت

ضربات قلبي الذي شعرت أنه يكاد يخرج من صدري من شدة الخوف.

- من عقاب إلى واحد، لتتوجه السيارة باتجاه الطريق الرئيس على الفور!

كنت على بعد حوالي كيلومترٍ واحدٍ من مشارف المنطقة.

نزلت من السيارة ما أن خف اضطرابي واستعدت زمام الأمور، ثم نظرت للعجلة الخلفية حيث كانت ممزقةً على آخرها، والدخان يتصاعد منها.

لا توجد حركة على الطريق في هذه المناطق النائية، بينما من بعيد لاحت الدورية القادمة، إلى أن توقفت أمامي.

- هل أنت بخيرٍ يا سيدي؟
- نعم، نعم. انطلق بسرعة.

قلت بعد أن فتحت الباب وصعدت مع بقية العناصر، تاركًا خلفي سيارتي مركونةً على جانب الطريق.

- من عقاب إلى ثلاثة، ما وضعك؟
- هرب سائق سيارة الإسعاف يا سيدي!
- ماذا تقصد بأنه هرب؟
- لا أعلم، كنت على وشك إسعاف الطفلة وأمها حين انطلقت السيارة.

أغلقت الاتصال وأشرت للعنصر الذي يقود بالإسراع، حيث وصلت أخيرًا إلى مكان الحادثة، شرعت بالدخول إلى المنزل حالما نزلتُ رفقة عناصر الدورية. تم تقييد يدي الشاب بالأصفاد وعلامات الصدمة تملأ وجهه، كان غارقًا بالدماء مع دموع لا تكف عن النزول على خديه، أما والدته وطفلتها

المجروحة في جبينها، فقد كانتا في الجهة المقابلة قبالة الشاب القاتل، في الجهة المقابلة من الصالة.

أطلقت قدميّ للولوج إلى الحديقة، حيث ذهلت مما رأيت. المشهد مخيف، قطع العظام والشعر والدماغ صبغت العشب الأخضر، أكاد لا أرى وجه الضحية.

- ما علاقة القاتل بالمتوفى؟
- إنه والده.
- والده؟!!
- نعم يا سيدي.
- هل تكلم الشاب؟
- استمر بقول لست أنا القاتل ثم توقف عن استيعاب ما فعله كما رأيت.

أكد كلامه شكوكي بأن الشاب ليس القاتل، بل هو ذلك اللعين المريض. لم أكد أتمحص الفكرة التي تجول برأسي، وأرتب معطيات الحادثة حتى ارتفع صدى إطلاق نارٍ بعيد.

«إنه جاسم»

خطر في ذهني اسمه فورًا، إنه قريبٌ للغاية، لا يمكن أن يفلت من قبضتي. تركت كل شيء من يدي وتوجهت إلى الخارج حيث تركت خلفي بعض الرجال المساعدة المرأة وطفلتها، ونقل الشاب إلى القسم بعد جمع كافة الأدلة وإرسال فريق لأخذ الجثة من المنزل.

على الطريق تجمع بعض الفضوليين للملمة الأخبار، بينما جاءت عدة مركباتٍ من جهة الطريق السريع وهي تعبر بسرعة، كأن شيئًا مريبًا يطاردها. رافقني حينها عنصران واتجهنا نحو

مصدر الصوت، وأمامنا غدا الشارع الذي يتقاطع مع الطريق السريـع فارغًا. أصبحت الأحداث أكثر إثارةً الآن، شهدت مدى وحشية هذا القاتل مرتين، وقد تكون الثالثة قد وقعت بالفعل.

هناك على التقاطع تمامًا، بانَتْ سيارة الدورية المركونة في منتصف الشارع، اقتربنا بحذر ويدي على سلاحي أتوقع حدوث أي شيء، لكن لم أشاهد أي عنصرٍ داخلها، وما أن صرت بمحاذاتها، حتى رأيت خط الدماء الذي يمتد إلى خلف السيارة.

- توقف!

قلت للسائق، ثم خرجت متأهبًا وأشرت للعنصر الآخر في الخلف بالاتجاه من الجهة الثانية. لم أعد أقوى على احتمال ما يجري. يجلس أحد رجالي ويضع رأس زميله فوق قدميه، ذلك الرأس الخالي من العينين والذي لم يتبقَّ أكثر من نصفه، وما أن شاهدنا الرجل حتى انفجر بالبكاء والصراخ.

- حضرت زفافه قبل أسبوع، واليوم قتلته، قتلته رغمًا عني!!

اقتربت منه بهدوء، ثم حاولت إبعاد الجثة عنه، لكنه أبى تركها، بل حضنها بجنون وبدأ بتقبيل رأس زميله المشوه والمدمّى، وأخذ يضرب على رأسه، يعاقب نفسه على فعلته.

- اهدأ، لم تكن أنت الفاعل، أعلم ذلك.

همست بأذنه، حتى أخفف معاناته وأشحن غضبه ليساعدني على الانتقام من المريض المجرم.

- أقسم لك يا سيدي، لم أستطع منع يدي من إطلاق النار.

بعد أخذ ورد أقنعته بالابتعاد، والعودة إلى المركز رفقة يهم أحد الرجال الذين رافقوني، ولكن قبل أن الاثنان بالمغادرة، اقتربت

مجددًا منه وقمت بسؤاله إن كان يتذكر الاتجاه الذي سلكته سيارة الإسعاف، إلا أنه لم يكن يعي ما يجري حتى شاهد جثة رفيقه أمامه.

حسب مخطط الإحداثيات كان الطريق السريع يصل إلى مدينة حوز من جهة، وإلى قرىً أخرى صغيرة ومتفرقة قريبة من جهة أخرى، لذا اتبعت حدسي و قررت الانطلاق إلى المدينة، بعد أن أبلغت عن الجثة المتروكة خلفنا.

لم أعد أبالي بالجهد الذي كان يفتك بي، همي الوحيد هو الإسراع للحاق بذاك اللعين، لم تمضِ دقيقة حتى وصل الدعم مع عدة سيارات جديدة تم إرسالها من المركز، لذا توجهت على الفور رفقة إحدى السيارات نحو المدينة.

- كيف حالك يا سيدي؟ نحن خلف المجرم، نعمل جهدنا للإمساك به.
- كن حذرًا قدر الإمكان يا سامي، فقد وصلني تقرير المستشفى عن هذا المريض، ليس كأي مجرم اعتيادي، إنه شرٌّ خالص.
- أمرك يا سيدي، أريد إرسال بعض الدوريات الأخرى من المركز، وذلك لإغلاق الخط الواصل على طول الطريق السريع بين حوز وإلى ما بعد قرية زهور الليمون.
- لك ذلك، بحماية الله.

لم يتوانَ قائد المركز عن إرسال الدعم. هو يعلم تمامًا مثلي نموذج الإجرام الذي ألاحقه، لكنه لم يقلل من شأني أو يزعزع ثقته بي، ويحيدني عن القضية، ويرسل أحد الضباط المخضرمين في هذا المجال. كان يعلم حيلتي الواسعة، وشهيتي الكبيرة للقبض على مجرمي الأول.

انطلقت إذًا خلف حدسي بعد اطمئناني بأن الدعم سيحاصر خلفي القرى المتفرقة. أصبحت درجات الحرارة أكثر ارتفاعًا، والجو في الخارج لا يطاق. أمامي تسير سيارة الدعم الثانية، وفي الجهة المقابلة من الطريق الحركة قليلة للغاية، هناك حافلة قادمة من بعيد، تتقدم نحونا، ثم تعبر بسرعة.

«ستتولى الدوريات المنتشرة تفتيشها»

فكرت وأنا أتابع ملاحقة الطريق أمامي على الجانبين، قد يُجن القاتل ويجرب الهروب داخل الصحراء، رغم هذا القيظ الشديد. بعد قليلٍ وصلنا إلى تحويلةٍ طرقية تفضي إلى مناطق أخرى. إن استمررت إلى الأمام فسأصل إلى حوز، بينما إلى الاتجاهين الآخرين يوجد عدة مدنٍ أخرى لكنها بعيدةٌ للغاية، لكن حدسي يخبرني أنه اختار المدينة الأقرب والأكثر ازدحامًا، في خطةٍ منه للاختباء جيدًا في الزحام.

كنت حينها أعبر ببطءٍ قبل أن أقرر الاستمرار بالتقدم، على شمالي تتقدم شاحنةٌ بيضاء مغلقة كانت تخفف سرعتها قبل الالتفاف خلفي، في الطريق المعاكس، ثم أشرت للمركبة الأخرى بالتوقف وحماية التقاطع، والإبلاغ عن أي حركة مريبةٍ، لم يتردد الشرطيان في الركن جانبًا وانتظار التعليمات، رغم إحساسي بامتعاض أحدهما، فالبقاء وسط الحر الشديد تجربة بشعة لمن يجبر على خوضها.

أما أنا فقد انطلقت مجددًا إلى حوز، أعلم أنني أبحث عن إبرةٍ في كومة قش، لكن لا مجال للخطأ أو الإحباط، ستكون تجربتي الأولى وسامًا ذهبيًّا سأتذكره لسنوات.

- هناك حريقٌ كبيرٌ يا سيدي!
- أين؟

قال لي المرافق الذي يتابع رصد الطريق معي. لم أكن قد ابتعدت عن التقاطع كثيرًا، حين التفت إلى شمالي، فظهرت معالم دخان أسود يرتفع عاليًا، قبل أن تخرج كتلةٌ ناريةٌ هائلة.

- توقف!
- لقد حصل انفجار ما!
- لا بد وأنها إحدى محطات الوقود.

دار النقاش بيننا، نحاول تحليل ما جرى، خطر في ذهن أحدهم أن الحرارة العالية اليوم هي سبب الحريق، بينما توقعت الأسوأ، قد يكون جاسم.

- هل نعود أدراجنا؟
- نعم بالتأكيد.

تواصلت مع المركز لنقل آخر مجريات الأحداث، مع تشديد كبيرٍ على إغلاق مدخل حوز الرئيس تحسبًا.

منهكٌ تكاد الأشياء تظهر أمامي مثل السراب، لكنني أقاوم قدر استطاعتي للحصول على خاتمة بعد افتتاحيةٍ دمويةٍ خالصةٍ لقضية تكاد تقصم ظهري أحداثها، وأتبع قلبي الذي يخبرني بأنني على صواب، وسأمسك جاسم منهما طالت هذه المطاردة اللعينة.

منذ أن استدرنا نحو النيران المستعرة، ونحن نصب تركيزنا على الوصول إلى الموقع، ومحاولة إنقاذ أحد الأرواح التي ربما تكون عالقةً وسط الجحيم المشتعل، بينما ظهرت لنا على الجهة الموازية للطريق السريع ما أن التففنا على التحويلة الرئيسة، سيارة إسعاف قادمةٌ بسرعة، ربما سبقتنا بالفعل وانتشلت أحدهم من هناك.

رأيت وجه السائق الذي يقود بمفرده، والذي أبطأ قليلًا حين مر بمحاذاتنا، مجربًا الالتفاف عبر الممر الضيّق الخطير، حيث كاد أن يصطدم بجدار الحماية المصمم لمنع أي تجاوز يؤدي لا قدّر الله إلى حوادث خطيرة، ولا أعلم سبب فعلته تلك، ربما حاول اختصار الوقت لإنقاذ روحٍ تتطلب وصولًا سريعًا.

لم أبالِ كثيرًا في التشكيك بما جرى لولا صوت العنصر المرافق الذي صرخ فور عبور سيارة الإسعاف:

- إنها السيارة ذاتها!
- ما قصدك؟!

قلت للرجل الذي أربكني صوته المفاجئ، وأنا شارد الذهن أرتب الأحداث منذ مغادرتي المستشفى.

- أعتقد أنني شاهدتها أمام منزل الرجل الميت في القرية، حينما كنت أحمل الطفلة بين يدي.
- تعتقد أم واثق؟

تمهل سائق الدورية، لكنني أمرته بالاستمرار بالتقدم، لن أعتمد على إحساسه خاصةً أن جميعنا منهكون، ربما خُيل له فقط أنه شاهدها، لن أدخل الآن في الاحتمالات، فأغلب الظن أنها قادمةٌ من المحطة المحترقة.

- لا أعلم، أظن أنني رأيتها هناك.

ظلت عيناه إلى الوراء تراقبان مغادرة المركبة نحو المدينة الكبيرة، وأنا أشاهد نظراته القلقة في المرآة. أعذر خوفه؛ فما جرى منذ الليلة الفائتة ليس بالأمر الهيّن للجميع.

كلما دنونا من المحطة، توضح لنا حجم الحريق الضخم أكثر، حيث على حافة الطريق وقفت سيارة الإطفاء برجالها

الشجعان يضخّون المياه لإخماد ما يمكن من النار المستعرة، إلى أن وصلنا لمسافة آمنة نوعًا ما، حيث يمكن الاحتماء من لهيب ألسنة الجحيم التي تزيد قيظ الجو المنهِك. كان الجميع مشغولين، لا يبالون بالخطر الذي يمكن أن ينهي حياتهم في أي لحظة. لم نستطع الاقتراب على الإطلاق لتقديم المساعدة، حتى أن قائد الشاحنة الذي كان يتكلم عبر جهازه اللاسلكي، أشار لنا بالتراجع والبقاء في الخلف، والرجال لا يكفون عن رش المياه في أكثر من جهة لمنع امتداد النيران.

بعد عدة دقائق سمعت صوت سيارة إطفاء أخرى تقترب، من حيث أتينا، لا بد أنها قادمةٌ من المدينة الكبيرة، والتي اصطفت قرب المركبة الأولى وبدأت برش سائلٍ رغويٍّ معدٍّ للحالات المستعصية، التي لا ينفع معها الماء، وبالفعل بعد قليلٍ بدأت تظهر ملامح المضخات المحترقة، بينما غطى الدخان الأسود المتصاعد السماءَ كسحبٍ ضخمة، جعلت ضوء النهار يخف.

غطت الرغوة كل شيء، وما أن تم إخماد النار حتى ظهر حجم الأضرار التي حلت بالمحطة. احترقت كافة المضخات، وجزء كبير من المبنى، أكلت النيران كل ما جاء أمامها، ونحو الغرفة خلف إحدى المضخات ظهرت المأساة. شكل رجل محترقٍ أخذ وضعية السجود، وامتدت يده تمنع النار حمايته من بينما احتضن شخصًا آخر أسفله. كان يجرب حمايته من اللهيب القادم.

لا أعلم ما الذي جرى هنا، ما إذا كانت مجرد حادثةٍ عرضية بفعل حرارة هذا اليوم، لكنني لا أزال أضع احتمالية تورط المريض القاتل هنا.

- لا أحد يقترب، هناك موتى!

أخبرت رجال الإطفاء بعدم لمس شيء، ربما هناك أدلة ما تقودني لإثبات الشك الذي يعتري صدري.

- نريد التحقق فقط من المضخات، وإغلاق التسريب إن وجد.

قال أحدهم وانطلق لتفحص الخزانات مع زملائه، بينما اقترب من الجثتين، الرغوة تغطي أغلب تفاصيل جسديهما، لكن ضغط الماء الغزير قشط الجلد واللحم المهترئ في بعض الأجزاء. لحظات مريرة عاشها الاثنان حينما كان يجرب أحدهما إنقاذ الآخر، لكن وضعيتهما تظهر لي أن الشخص في الأسفل كان مصابًا. هنا ازداد قلقي من حدوث أمرٍ مريب، لذا توجهت داخل المبنى.

كان الدخان المنبعث من الخشب المحترق يفيض في المكان، كما أن الحرارة شديدةٌ للغاية. فتحت الباب قليلًا حتى يخف اللهيب بعض الشيء، وأشرت لعناصر الدورية بالبقاء حول الجثث، ومنع أحدٍ من الاقتراب، ثم ولجت إلى الداخل بحذر، لم يحترق كامل المكتب الخشبي، لكن لفت انتباهي الدرج المفتوح، وبعض السجلات المحترقة. بحثتُ في باقي الدروج، لم أجد أي تفاصيل تثبت هوية الضحايا أو أي نقود، لذا خرجت مجددًا إلى الضحيتين، وباشرت تفتيشهما بحذر، لم أجد سوى أجزاء من محفظة واحدة تظهر قطعًا من الوثيقة الشخصية، أسفل الشخص الذي توقعت إصابته قبل وفاته، مع أجزاء صغيرة من النقود التي احترق معظمها.

لم أجد للآخر أي دليل يثبت أنه كان يحمل محفظته، فبدأت بإزاحته بحذر عسى أن أجد شيئًا أسفل جسده المحترق المتصلب برائحته التي تقطع الأنفاس، لذا حاولت جاهدًا

تمالك أعصابي بينما باشرت نبش ثيابه في كافة الاتجاهات، كانت يداي تتحسسان الجلد وتغوصان بالسوائل المنبعثة من انتفاخات الحروق، بينما عيناي لا تفارقان رأسه المتفحم وجمجمته الظاهرة.

بعد أن فقدت الأمل في إيجاد أي دليل، تراجعت للخلف أريد استنشاق بعض الهواء النظيف، ثم قمت بالإبلاغ عن الضحايا... وتذكرت سيارة الإسعاف التي قابلناها في طريقنا إلى هنا.

«ما سبب سرعته وارتيابه؟»

قلت في رأسي، والشك يتشارك الحر في سلب جسدي طاقته، ثم عدت للتفكير بالأدلة المفقودة لبيان شخصية المتوفى، قد يكون جاسم افتعل الحريق وسرق بعض ما يمكن أن يساعده في تجنب الوقوع في شركنا.

لاحت بعد حوالي نصف ساعة، عدة دورياتٍ أنهى بعضها تفتيش القرى المتفرقة حول موقع زهور الليمون، للمساهمة في مطاردة اللعين الذي غدا كالشبح. رأسي يكاد ينفجر، لا يمكنني إدراك أي دليلٍ جليٍّ على مكان وجوده، عليّ أخذ قسط من النوم ولو لساعة أُريح فيها رأسي.

أنهى العمال معاينة الخزانات والاطمئنان على عدم وجود أي تسريبٍ، وقاموا بتوضيب الخراطيم، وإعادتها إلى مكانها، والتجهز للمغادرة، بينما جهزت نفسي للانطلاق مجددًا إلى حوز. رأيت نظرة المعاتبة من العنصر المرافق معي، كأنه يريد إخباري بأنه توجب عليَّ الثقة بما رآه، واللحاق بسيارة الإسعاف تلك.

أجهل مثله تمامًا إن كان جاسم في المركبة وقت انطلاقها بالاتجاه المغاير، لا أستطيع الاعتماد سوى على المعطيات الموجودة أمامي، والتي لا تظهر حتى الآن مكان ذاك الوغد، رغم أنني لا أريد الاعتراف بأنني أتبع إحساسي وأحاول جاهدًا الوصول إلى خاتمة.

التففنا مجددًا عائدين إلى المدينة، بعد إرسالي تقريرًا عما جرى إلى مركز القيادة، ثم أرخيت رأسي في محاولة لإراحة عينيّ قليلًا، لم أدرِ أن التعب المتغلغل في جسدي، سيسرق مني وقتًا طويلًا من المطاردة قضيته في النوم.

- سيدي!

لا أعلم كم مضى من الوقت صحوت على صوت الرجل بجانبي يحاول إيقاظي.

- آسف يا سيدي على الإزعاج، لكن تم الإبلاغ عن

-كم مضى من الوقت وأنا نائم؟

- نصف ساعة تقريبًا.

إنني منهكٌ تمامًا، لكن نصف ساعة من الراحة لا بأس بها في خضم ما يحدث. بعد استعادة توازني تواصلت مع المركز لمتابعة آخر التحديثات، حيث قام سائق مركبة الإسعاف بصدم سيارة دورية وتعطيلها، لكن الحمد الله دون أي خسائر، ولا تزال تناور على الطرق الفرعية المحاذية للطريق السريع حيث نعبر.

توجهنا للمشاركة في إيقاف المركبة، أنظر للرجل خلفي في المرآة وأشاهد عينيه المنهكتين من شدة النعاس. أعرف حجم ما قاساه أيضًا، لذا تركته يرتاح قليلًا.

- توقف.

طلبت من السائق التوقف، حيث بدا التعب عليه هو الآخر واضحًا، لكنه يجبر نفسه على التحمل، رغم أنه حاول بتهذيبٍ التأكيد على صحوته، إلا أنني نزلت في النهاية وأجبرته على ترك المقود والجلوس مكاني، ثم انطلقتُ بالسيارة إلى حيث تم إرسال الإحداثيات الخاصة بالمركبة القارية

مضى الوقت سريعًا، ولا أثر لسيارة الإسعاف، تم التأكيد على رؤيتها داخل قريةٍ على مفترق طريقٍ قبل المدينة، لا يستطيع الدعم المرسل إحاطة كل المناطق المفتوحة أمامنا، لذا عليّ التنقل من مكان إلى آخر أنا وبقية الدوريات على أمل أن نجد السيارة.

في الطريق وبينما كان عقلي وعيناي وكل جزئيةٍ مني منشغلةً بالبحث والرصد، خُيل لي أن العنصر الجالس في الخلف يرمقني بنظراته الغاضبة، ومع أفكاري عن القاتل الذي يستطيع اختراق عقل أي شخص، لا أعلم لمَ انتابني الفزع من قيام الرجل بأي حركة ضدي، ازدادت ضربات قلبي وأنا أتابعه في الخلف، أخشى اقترابه مني ومحاولة التخلص مني. لا أعلم بالضبط أسلوب المريض في اختراق ذهن ضحيته، إلا أن الهلع احتل كياني بالكامل، حيث بتُّ غير قادرٍ على التمييز بين الواقع والخيال.

بانت عدة مفترقات طرق أمامنا، أحدها كان يتجه إلى القرية التي تم الإخبار عن المركبة فيها. حينها توجب عليَّ تخفيف السرعة والالتفاف، لكن حركة الرجل المفاجئة نحوي جعلتني التفت للخلف، بينما تطأ قدمي بقوة ودون أن أشعر على دواسة الوقود.

- ابتعد عني!

صرخت بخوف وبصوت عالٍ أجفل الرجلين، وقبل أن أدرك أنه كان محض خيال، لا شيء منه واقعي، كان الأوان قد فات، فقد أفلتت يدايَ المقود وعلى أثر السرعة الزائدة التي انطلقت بها، فقدت السيطرة على سيارتنا؛ مما أدى إلى انقلابها بعد أن ترنحت عدة مراتٍ خارج الطريق.

أحسست بدورانها في الهواء، بأجسادنا التي تتطاير معها، قبل أن تضرب في الأرض عدة مرات، وتصطدم بحجرٍ كبيرٍ أسهم في إيقافها، واختفى كل شيء بلحظة واحدة.

- إنه حيٌّ أيضًا، ساعدني على إخراجه.
- الباب لا يفتح من جهتي، سأحاول من الجهة الأخرى.

كانت عدة أصوات تصدح حولي. لها وقع سيئٌ على أذني، مثل الطنين الحاد. جسدي يرتجف بشدة من البرد، كما أن الضوء خفيف في الخارج. شاهدت يدًا تمتد لتلمس جسدي.

- ما اسمك؟

قال الرجل.

«ما همُّه الآن باسمي؟».

فكرت ولكن ما أن استطعت استيعاب ما جرى، حتى

تذكرت الحادث.

- لقد تعرضتَ لحادث، أنت بخيرٍ لا تقلق، لكن أريد منك إعلامي إذا شعرت بأي ألمٍ أثناء إخراجك.

أشرت برأسي بالموافقة، بينما استمر بتحسس جسدي محاولًا تفحص وجود أي كسورٍ أو جروح. الحمد لله ليس هناك سوى

بعض الرضوض في قدمي اليسرى كما يبدو، لكن بالون الحماية المنتفخ كان يضغط قليلًا على صدري.

بعد التحقق من عدم وجود إصاباتٍ خطيرة قام المسعف بسحبي بهدوء، حتى وصلت إلى جهته فقام هو ورجل آخر برفعي ووضعي على النقالة تجهيزًا لنقلي إلى سيارة الإسعاف.

كان الفجر قد حلَّ، لذا لا بد أن البرد الذي شعرت به كان بسبب قضائي الليل كاملًا وأنا فاقد للوعي.

- أين رَجُلاي؟
- إنهما بخيرٍ أيضًا لا تقلق.

سألت المسعف قبل الوصول إلى السيارة، ثم لاح لي أحدهما أمام بابها المفتوح في الخلف، بوجهه الشاحب، وقد جلس على طرف المقعد الأزرق، وتم تثبيت ذراعه اليمنى، التي يبدو أنها تعرضت للكسر، بينما أرخى الآخر رأسه وجسده على بقية المقعد في الداخل.

- انطلق بهما، أنا لن أغادر.
- لا يمكنك البقاء هنا يجب علينا التحقق من عدم وجود أي إصابات داخليةٍ لا قدّر الله.
- هل أنت أصم؟! أنا بخير ولن أغادر.

نزلت بصعوبة وأنا أكابر على ألمي، ثم توجهت صوب سيارة الدورية التي أخبرني رجالها ما أن وصلت إليهم، بأنه تم إرسالهم بعد انقطاع الاتصال معي، لكن الأمر المزعج كان إعلامي بأن القائد عيّن ضابطًا آخر بديلًا عني، بعد سماعه بتعرضي للحادث.

- السلام عليكم.

- أهلًا وعليكم السلام يا سامي، كيف حالك؟
- أنا بخير يا سيدي، كان حادثًا عرضيًّا لا تقلق.
- هذا جيد، اذهب للمستشفى الآن وارتحْ، سيتابع الملازم مجد القضية عنك.
- أرجوك يا سيدي، أنا بخير، أرجو منحي هذه الفرصة.

لن أتوقف قبل الإمساك بالمريض. خاصةً أنني بت أعرف طريقة تفكيره وأسلوبه.

- لكنك تعرضت توًّا لحادثة، ولن أسمح لك بأذية نفسك.
- أقسم بالله يا سيدي إنني بخير، وسأتابع العمل على الفور.

غاب صوت قائدي لعدة ثوانٍ قبل أن يعود ويخبرني باستكمال القضية، مع التشديد على الحذر جيدًا والتوجه إلى المستشفى إذا شعرت بأي ألم، ثم أغلقت الهاتف المحمول، وأشرت لرجال الإسعاف بالمغادرة.

لقد كذبت.. لكن لا أستطيع أن أفشل في أول مهمةٍ توكل لي، رغم أنني مضطرب للغاية لتسببي بإصابة رَجُليّ، اعترف بأسفي لهما؛ فلست على ما يرام. كل ذلك حصل بسبب الإجهاد وقلة النوم لا أكثر.

- هل من خبر حول المركبة الهاربة؟
- نعم يا سيدي تجري مطاردتها الآن على الطريق السريع قبل حوز.

تحمست لسماع الخبر لذا أشرت لهم بالمغادرة على الفور، بعد جلوسي بصعوبة على المقعد، فلا يزال تأثير الرضوض شديدًا. كانت الدقائق القادمة حاسمة، لا يمكن للمجرم الهروب الآن،

كنت أمني النفس بإمساكه بيدي، لكن إن استطاع الدعم الإطاحة به فلا بأس بالتأكيد.

عاد الحر مجددًا للاشتداد، مع مرور الوقت وازدياد أشعة الشمس الحارقة، حيث يمكن رؤية اللهيب الذي يتصاعد عبر الإسفلت. تناولت زجاجة ماءٍ وضعت بيني وبين السائق، وشربت بعضها ثم بللت وجهي قليلًا حتى أخفف سخونته.

للأمام ظهرت بعض معالم المدينة بأبراجها العالية، رغم الجو السديمي الذي يخفى جمال معالمها، ومع كل دقيقةٍ نقطعها كان يصفو المشهد وتصبح المباني أكثر وضوحًا.

- أسرع قليلًا.

أخبرت السائق الذي لم يتوانَ عن ذلك، فقد بان لي من بعيد تجمعٌ غريب لبعض السيارات، التي ما أن اقتربنا قليلًا نحوها حتى ظهر رجلٌ يضع يديه خلف رأسه ويركع على ركبتيه. للوهلة الأولى ظننته جاسم، لكن بعد التدقيق في ملابسه الرسمية علمت أنه أحد عناصر الشرطة.

اصطففنا قرب السيارات المحيطة، الرجال منتشرون في كل مكان، يمنعون أحدًا من الاقتراب، بينما يوجه آخرون السلاح على الشرطي الذي يبدو خائفًا للغاية.

- ماذا يجري؟

أمسكت سلاحي أنا الآخر، واتجهت صوبه، حيث رأيت جثةً قبالته، كانت تتدلى من باب سيارة الاسعاف التي تمت مطاردتها. الدماء غطت الباب والدماء تسيل من كافة أنحاء الجسد الميت.

- لم يفعل الرجل شيئًا، لكن زميلنا قام بقتل السائق دون أي سبب يا سيدي!

علمت على الفور أن السائق المسكين كان ضحية جاسم ايضًا. لقد وجَّه الشرطي لقتله ربما، لذا توجهت صوب السائق للتحقق من هويته

«لكن كيف؟!»

أفكر ويكاد يقتلني السؤال، أجهل تمامًا قدرة الشر التي يفتعلها للقتل من مسافاتٍ بعيدة، إن كان كذلك فهو قادرٌ أيضًا على قتلي، لكن لا أعلم لماذا لم يفعل ذلك بعد.

- خذوا سلاحه، وضعوه في الحجز، ريثما ننتهي من القضية.

أخبرتهم ثم انطلقت إلى داخل المدينة، أريد أخذ قسطٍ من الراحة، فما زال رأسي يشوبه القليل من الألم بفعل الاصطدام. انطلقت وحدي في إحدى السيارات، بعد أن تركت سيارتي مكان الحادث، ولا أعلم إن تم جلبها إلى المركز لإصلاحها، لم أكن أبالي صراحةً، كنت على استعدادٍ لخسارة كل شيء والقبض على المجرم.

تقودني عزيمتي وألم الرضوض، وصلت إلى مقهىً صغير وطلبت فنجانًا من القهوة، ثم اتصلت بوالدتي التي تذكرتها فجأة في خضم الأحداث المتسارعة حولي. أخبرتها أنني بخير ولن أستطيع التواصل معها بسبب انشغالي بقضية صعبة، تسلل الأمان والاطمئنان إلى قلبي إثر سماعي لدعواتها التي أثلجت صدري وأنستني الألم.

كنت أرتشف القهوة محاولًا حقن الكافيين في دمي، حين تم طلب تعزيزات أخرى على الطريق الواصل إلى المدخل الفرعي

من حوز، نهضت من مكاني وتركت ثمن الفنجان الذي لم أتمكن من إنهائه فوق الطاولة، واتجهت نحو المخرج، وقبل أن أصل إلى سيارتي، اتصل بي قائد المركز مجددًا.

- اسمعني جيدًا يا سامي... لن أحيدك عن القضية، لكن الموضوع أصبح أكبر من قدرتنا على استيعابه.
- أعلم ذلك يا سيدي لكن...
- دعني أشرح لك.
- أمرك..
- أوكل إليك مهمة تفتيش المدينة وتثبيت نقاط تفتيش في كل مكان، من المرجح أن المجرم اتجه نحوها. أما مجد فقد انطلق حاليًّا صوب الطريق الفرعي لفهم ما يجري.

أغلق الهاتف قبل أن يسمح لي بشرح وجهة نظري، وبعد أوامره المشددة بضرورة التعاون مع الضابط الآخر، وذلك لتجنيب حوز هول ما هو قادم.

- ربما كان على حق.

قلت وأنا أصعد للسيارة، حيث طلبت دعمًا من الدوريات القريبة مني داخل وخارج المدينة لوضع خطةٍ محكمة، وانطلقت بعدها إلى نقطة في منتصف المدينة كنت قد عممتها على العناصر القادمة، وذلك لتوزيع المهام عليهم بشكلٍ آمن.

ثم وما أن وصلت إلى المنطقة المنشودة حتى اتصل بي الطبيب أحمد:

- أهلًا دكتور، ما الجديد؟

- يا سيدي، لقد فككت بعض الرموز، يجب أن تحضر بسرعة!

ثم أكمل وصدى تلاوة القرآن العالية بجانبه صعّب عليّ التقاط كلامه:

- لا أستطيع التحدث طويلًا، أراك قريبًا.

أغلق الاتصال على الفور، وتركني في حيرةٍ من أمري، بينما وعبر القناة العامة على جهاز الإرسال، كنت أستمع لمجريات الأحداث، حيث أبلغ مجد عن جريمةٍ بشعةٍ على الطريق الفرعي قرب أحد المنتجعات السياحية، وجاء تقريره المرسل إلى المركز والذي وصلني على الفور كالآتي:

«بعد الإبلاغ عن موت أحد الأشخاص في المنتجع الأخضر، انطلقنا على الفور، لكن الصدمة كانت التقاءنا بسيارةٍ سياحيةٍ بيضاء كبيرة تمشي ببطءٍ، وفي خلفها جثة ذكرٍ مشوهةٌ تمامًا. رغم محاولتنا مجاراة السيارة وإيقاف الرجل لكنه أبى الانصياع، اضطررنا لإطلاق النار على العجلات لإجبارها على الوقوف، ثم اقتربنا بحذر من الرجل الذي يقود. كان مخدرًا لا يعي ما يفعله. عيناه لا ترمشان، يداه مثبتتان على المقود، ومنفصلٌ تمامًا عن العالم، مما دفعنا لإنزاله وجسده متصلب مثل قطعة خشب، أما الجثة الممزقة، التي ربطت يداها، فلم يبقَ من معالم وجهها شيء، لقد أذيب الجلد تمامًا على الإسفلت الساخن، وتكسرت أغلب الأسنان، وانبجست إحدى العينين إلى الخارج بينما تم هرس الأخرى، وكان الجسد عارِيًا تمامًا وملونًا بالدماء، والجلد مسلوخ، ولم نجد أي معلومات تخبرنا بهوية الضحية...»

صعقت من حجم الإجرام المفتعل الذي فاتني، لذا تابعت قراءة التقرير، بينما بدأت حينها الدوريات بالوصول:

«حين الانتهاء من عملية نقل الضحية إلى المركز، تم الاتجاه نحو البلاغ الأساسي، حيث وصلنا إلى المنتجع، وقابلنا رجلًا كبيرًا في السن جالسًا في الخارج رفقة بعض النزلاء، والجميع تبدو عليهم معالم الخوف الشديد، ولجنا نحو صالة الاستقبال، حيث قادنا الرجل العجوز وهو يتعرق بشدة، ويشير من بعيدٍ إلى الغرفة المقصودة، دون أن يجرؤ على الاقتراب، وجدنا عبر ممرٍّ ضيق بابًا أبيض مفتوحًا، وملوثًا بالدماء، ثم داهمنا المكان بحذرٍ، حيث تم إيجاد جثةٍ لا يمكن للعقل أن يتخيل شناعة شكلها، كأن شيئًا امتصها من الداخل، بينما ظهرت كراتٌ دمويةٌ على كامل الجسد، مع تزيف شديدٍ من الفمِ والأنف، وصولًا إلى العينين والأذنين، كانت الضحية غارقةً في الدماء والعظام تكاد تخرج من تحت الجلد الرقيق».

انتهى التقرير هنا، حيث انشغل الملازم مع بقية رجاله بإزالة آثار الجنة الأخرى.

- إنه يعيث خرابًا في كل طريقٍ يسلكه!

أتمتم بتلك الكلمات، وأزداد حماسًا للانطلاق والإمساك بالمجرم الطليق، حتى أن الخوف الذي اعتراني سابقًا بدأت آثاره تخف، لذا استجمعت طاقتي وخرجت جامعًا الرجال حولي، ومعلنًا حالة استنفار شاملة بمساعدة الدوريات المحلية من المدينة، ومعممًا صورته عليهم، حيث سينطلق الكثير من الرجال للتواري في عدة مداخل لفنادق ومطاعم ومتاجر، وأماكن قد يخطر لذلك اللعين دخولها.

مع التشديد الكبير على عدم الاشتباك معه، بل الاكتفاء بالإبلاغ فور مصادفته، ورغم أن الأوامر تقضي بإلقاء القبض عليه حيًّا، إلا أنني كنت على استعدادٍ لمخالفة الأوامر، وإطلاق رصاصة تقضي عليه بمجرد رؤيته.

لم تمضِ دقائق حتى غاب الجميع بين الشوارع والأزقة الضيقة، متأهبين لأي طارئ، أما أنا فقررت التوجه رفقة أحد الرجال نحو المدخل الآخر للمدينة. كان حدسي يدفعني إلى هناك، وشعورٌ غامضٌ يحتل كياني يخبرني بأنني قريبٌ منه للغاية، لذا انطلقت نحو المكان المنشود بكامل غضبي، وما أن وصلت إلى هناك، حتى دخلت إلى أحد المتاجر الغذائية.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله.

حملت هاتفي وقمت بتوجيهه إلى الشاب خلف الحاسب.

- هل مر بك هذا الشخص اليوم؟

حاول الشاب التدقيق جيدًا في الصورة، حتى لا يخطئ في إجابته بعد أن رأى الزي الرسمي الخاص بالشرطة.

- لا لم أره، أعتذر منك يا سيدي.

التفتُّ مغادرًا مجددًا واتجهت إلى المتجر المقابل، تقودني قدماي دون أن أتمكن من إيقافهما. كان متجر ملابس ضخمًا، يحتوي الكثير من الأثواب والألبسة الفخمة من أرقى العلامات التجارية، ومأخوذًا بإحساسي الكبير توجهت صوب رجلٍ يجلس خلف مكتبه الفخم، الذي بدا أنه مالك المتجر، وما أن اقتربت حتى نهض على الفور نحوي.

- أهلاً، أهلاً.. كيف يمكنني مساعدتك؟

ثم أشار لأحد الشبان المساعدين له، لقد ظنني زبونًا يجرب إظهار جانبه الودود بأسلوب فاضحٍ للتحايل على الزبائن، أظهرت الصورة مجددًا وقمت بطرح السؤال ذاته.

- هل مر بكم هذا الشخص؟

أخذ الرجل نظرة سريعةً دون أي تركيز يذكر، قبل أن يؤكد على عدم مرور جاسم بمتجره.

- هل لي بنظرة يا سيدي؟

طلب الشاب رؤية الصورة. لم يستغرق الأمر معه أكثر من ثانيتين، ثم جاءت إجابته التي أثلجت صدري:

- لقد كان هنا منذ قليل الشخص ذاته لكن بهيئته المقلقة.
- ماذا تقصد بالمقلقة؟
- لقد كان مخيفًا، نبرته وشكله، كأنه تعرض لحادث، فالدماء تسيل على جبينه، وثيابه ممزقة، ونظراته لا يمكن تحملها.

نادى الشاب زميله لتأكيد رؤيتهما الشخص ذاته، ثم أشرت إليهما بوصف ما جرى، وكيف قام بمجرد صرخة واحدة بدب الرعب في قلبيهما، وأكدا على مغادرتهما دون أن يجرؤ أحد منهما على النظر إلى الخلف. بعد أخذ الأقوال اتجهت إلى مالك المتجر مجددًا، وطلبت رؤية كاميرات المراقبة في الخارج.

رغم عدم تعاونه ومحاولته التملص من المساعدة، حتى لا ينشغل العمال معي عن أحد الزبائن، فتفوته الفرصة لجمع المزيد من المال، أفهم طمعه الشديد، لكنه مضطرٌّ في

النهاية لتقديم ما أريد، حيث قام بالعودة إلى التسجيلات الأخيرة، التي لم يمضِ عليها أكثر من ساعة.

جلست أراقب بتمعن، قربي الشرطي وخلفنا المالك فقط، قمت بتسريع اللقطات التي تظهر السيارات القليلة العابرة، والزبائن الذين يدخلون المتجر المقابل، وهم يركنون سياراتهم أمام أبوابه، إلى أن وصلت إلى الحدث المشوّق.

ظهر رجلٍ بالمواصفات ذواتها التي شرحها الشابان، جالسًا يخفي وجهه على الرجلين اللذين بدأ أحدهما بالتلويح له بيده، كأنه يقوم بتهديده.

ثم وعلى حين غرة انتفض الرجل الجالس، ولوح الآخر بيده لفسح المجال كما يبدو ليغادر.

- إنه هو، من المؤكد أنه جاسم!

قلت والأدرينالين يرتفع في جسدي أتحمس للحاق به، إلا أن مشيته الغريبة حين وقف واتجه إلى الشارع الآخر المقابل، أضفتْ مع نظرته المقصودة إلى الكاميرا المثبتة نحوه، طابعًا مرعبًا أجفلني. لقد باغت تركيزي في استكشاف ملامحه، حين أدار وجهه بسرعةٍ ووجه نظرةً قاتلة، لا يمكن وصفها، أثارت الهلع في قلبي وأجفلت أوصالي، لدرجة أن الشرطي المرافق أمسكني، قبل أن أسقط إلى الخلف مجربًا الابتعاد.

لم يرَ أحد منهما تلك النظرة على الإطلاق، لا بد وأنني التخيل، أو أنه يحاول العبث برأسي لإخافتي. عدت مجددًا إلى التسجيل حيث اختفى في زاوية عمياء يصعب كشفها. التقطت أنفاسي وأشرت للعنصر المرافق بالمغادرة، لكن قبل وصولي إلى الباب سمعت صوت الشاب خلفي يقول:

- ستندم يا سامي!

استدرت على الفور حيث استفزني الكلام، إلا أن الشاب كان يقف بعيدًا يتكلم مع أحد الزبائن.

- هل أنت بخير يا سيدي؟

استغرب الشرطي مجددًا تصرفي، لكنني أكدت على أنني بخير، ثم انطلقنا إلى سيارة الدورية باحثين عن كاميراتٍ أخرى تظهر تحركات جاسم اللعين، بعد أن توضح لنا أنه قريب للغاية.

ما أن وصلنا إلى الشارع الطويل المتقاطع مع الكتل العمرانية الضخمة، حتى بدأت تفحص المتاجر ومغاسل السيارات التي قامت بتثبيت أجهزة مراقبةٍ في الخارج، في اللحظة التي نزلت بها إلى الطريق أصابني دوارٌ مزعج، جعلني أتكئ على أحد أعمدة الإنارة لعدة ثوانٍ.

- لا أعتقد أنك بخير يا سيدي، عليك أخذ قسطٍ من الراحة.

قال الشرطي المرافق، الذي حاول إمساك جسدي عن السقوط. فانفجرت بوجهه مؤكدًا أنني بخير وطلبت منه أن يتركني وشأني، لبى الرجل طلبي وتوقف عن محاولاته في تنبيهي إلى تدهور صحتي. توجد رائحة قذرةٌ حيث أقف تثير حفيظتي، فأجبرت نفسي على الابتعاد عن البقعة المثيرة للإعياء.

إنني الآن أقرب للقاتل، لا أريد الإبلاغ عن الأمر حاليًّا حتى أؤكد مكان وجوده، لذا ما أن استعدت تركيزي حتى انطلقت

إلى المحال التجارية المتوزعة بترتيبٍ أنيق يلفت الناظرين، حيث تم تصميم واجهاتها وفق النموذج العمراني الحديث.

توجد على مدخل متجر قطع السيارات عدة أجهزة مراقبة تمتد على طول الشارع، وهي الأفضل لمتابعة مسير القاتل. تقدمت مسرعًا إلى مكتب الاستقبال الذي يجلس خلفه رجل أربعيني.

- السلام عليكم، أريد رؤية تسجيلات المراقبة على الفور!
- وعليكم السلام.

قالها وهو ينهض لاستقبالنا بعد مشاهدة لهفتنا في الطلب، ثم تابع:

- كان بودي المساعدة إلا أن الكاميرات معطلة منذ حوالي ساعة، ولا نعلم السبب، ننتظر وصول التقني لإصلاح المشكلة.

أزعجتني إجابته، خاصةً أنني على عجلة من أمري، وتفصل بيني وبين اللعين بضع دقائق فقط كما يبدو، لذا عليّ الاستمرار في البحث في أماكن أخرى. لم أكد أدير ظهري

حتى عاد صوت الرجل خلفي:

- ستندم أيها المحقق!

رجعت على الفور وأمسكت الرجل من ياقته وأنا أستشيط غضبًا، حتى أن العمال تجمهروا حولنا لمعرفة ما يجري، ثم صرخت بوجهه:

- ماذا قلت؟؟

- قلت لك: كل الشارع تعطلت فيه أجهزة المراقبة يا سيدي.

كان صوته يرتجف وهو لا يعلم ما الذي دفعني لمهاجمته.

أكد الشرطي الذي أمسك بيدي، وهمس بأذني بنفس كلام الرجل، مؤكدًاعلى أنني أتوهم الكلام الذي أسمعه، ربما كان ذلك بسبب إرهاقي الشديد، أو لأنني أعد الثواني للقضاء على ذاك الوغد.

لم أعد أعي ما أفعل، عليّ أخذ فاصلٍ زمني لأميز الحقيقة من الخداع، قبل ارتكاب أي شيءٍ جديدٍ أحمق. خرجنا إلى الشارع وبدأنا نزور محال أخرى.

- اللعنة عليك!

قلت وأنا أركل باب سيارتنا، وأصرخ بكل قوة.

وبعد زيارتي أكثر من سبعة أماكن جديدة، دون أن أصل إلى نتيجة. تعطلت كل الأجهزة في الشارع من فعل ذلك الخسيس، لكنني أصبحت على ثقة بأنه هنا في المدينة ولن يخرج منها حيًّا.

بعد أن هدأ روعي قليلًا، قمت بإرسال تقرير عما جرى، وطلبت المزيد من الدعم لإغلاق المدينة بعد التحقق من وجود القاتل فيها، وبينما كنت أجرب البحث عن فكرةٍ أخرى للإيقاع بجاسم أو محاولة استدراجه، تذكرت الطبيب أحمد الذي ينتظرني على أحر من الجمر.

- جهز نفسك سآتي لأخذك

قلت لأحمد دون الإفصاح عن أي معلوماتٍ أخرى.

وأخبرت الملازم مجد الذي كان قد وصل إلى المدينة بضرورة مغادرتي وطلبت منه أن يتابع إغلاق المداخل بدلًا مني، ثم انطلقت بسرعة إلى مستشفى الأمل حيث اتصلت مجددًا بالطبيب أحمد الذي نزل على الفور.

- السلام عليكم كيف حالك؟
- الحمد لله.

قالها وهو مرتبك، ليخرج من جيبه نسخةً عن القصاصات، وبعض المقالات السابقة عن تلك الرموز، والتي تبيّن أنها أجزاء من كتابٍ ملعونٍ اسمه جنان يحتوي لغة أشبه بالسحر تدعى سيكوفي. تلك اللغة التي تقتحم لا وعي أي شخص، وتظهر له خيرها وجمالها حتى تتمكن منه، ثم تقوم بالسيطرة عليه رويدًا رويدًا، وهي تقنعه بقواه العظيمة التي أصبح يتمتع بها، دون أن يدرك أن الكتاب الشرير يتغذى على روحه، على خوف ضحاياه، على الدماء والدموع.

أكمل أحمد وصف ما وجده، حيث أكد أن للغة عدة قوىً هائلة، مثل استنساخ العقل، التعذيب واستخراج المعلومات وزرع معلوماتٍ أخرى، التحريض والتحكم، والكثير من القوى التي لو قبل الشخص بيع روحه لها لاستطاع تدمير مدن بأكملها.

قطعنا مسافةً طويلة، دون أن أخبر الطبيب إلى أين وجهتنا، حتى نمنع جاسم من معرفة ما نخطط له، ونضع جهدنا في كشف خبايا قواه، لتدميرهما معًا. بعد قطع مسافة عدة ساعات، وصلنا أخيرًا إلى زهور الليمون، وفوجئ أحمد حين قمت بإعلامه ما أن أصبحنا قبالة منزل القاتل جاسم.

- من الجيد أن نتحفظ على ما نقول ونفكر به.

قلت، بينما أشار أحمد برأسه الذي فهم قصدي بالإيجاب، محاولًا عدم التكلم كثيرًا، وتجنب حتى التفكير بالقاتل كثيرًا، حيث يمكن أن يحرضه ذلك على متابعة ما نفعله، اقتحمنا المكان المغلق بشريطٍ أصفر في الخارج.

لا أعلم سبب فضولي في المجيء إلى هنا رغم تفتيش المكان مسبقًا، لا يزال شعورٌ غامضٌ يحرضني على فعل ما أقوم به. تابعنا البحث في عدة أدراجٍ تحت الكراسي والأسرّة، في غرفته، في مكتب والده القديم، وأحمد يفتش بنهم، يقلب الأغراض بعشوائية مزعجة، ويتمتم ببعض الكلمات بين شفتيه، حتى انه رسم بعض الوسوم على ورقةٍ وقبض بها على صدره، ظل كذلك حتى غادرت المنزل خاليَ الوفاض، وانطلق بعدي.

- ألو
- السلام عليكم تفضل؟
- احذر جيدًا في خطواتك القادمة، سأجرب حمايتك قدر الإمكان!
- ماذا تقصد؟ من أنت؟

أخذت نفسًا طويلًا قبل أن أثور، حتى لا أعطي المجال للمريض القاتل بكشف مكاني، أو هكذا ما ظننته، ثم تابعت:

- لمَ لا تتكلم؟ سأغلق المكالمة بوجهك!

سمعت صوت أنفاسه القريبة من السماعة، كان يتنفس بحذر، وبتروٍّ، لكن لفتني وجود صوت أبواق سياراتٍ في الخارج، لا بد أنه في مدينة ما.

«هل يمكن أن يكون...».

انقبض قلبي تلك الوهلة، وخشيت وأنا أفكر أن يكون المتصل هو القاتل ذاته، لذا استجمعت طاقتي وكرهي الشديد لإطلاقه على هذا اللعين، إلا أن الصوت، وقبل أن أتلفظ حرفًا قاطعني:

- أنا خالد.

ذكر اسمه ثم أغلق الهاتف، من يكون هذا الشخص الذي يحاول حمايتي؟ لقد زاد من الأفكار الشائكة في رأسي، لا يمكن أن يفتعل أحدهم مزحةً غبيةً كهذه، خاصةً أنني لا أملك أصدقاء، ولا أحد إن وجد يجرؤ على ارتكاب حماقةٍ مثل هذه.

صعدت إلى السيارة، وتناولت زجاجة ماء سخنت بفعل الجو الحار. حاولت أن أبلل بلعومي قليلًا رغم سخونتها، وبعد لحظات صعد قربي الطبيب، متوجهين مجددًا إلى المستشفى لإيصاله. لم يكن اللقاء مثمرًا للغاية، لكنني عرفت المزيد عن هذا القاتل وأسلوبه الوحشي، رغم أن شعورًا ضمنيًّا يدفعني لتحدي هذا اللعين، أعلم يقينًا أنني أفضل من غيري في مقارعته لكن السبب غير واضح لي بعد، قد تكون صعوبة اختراقه لرأسي مثل باقي الضحايا عززت من هذا التحدي.

- ماذا إن كنت تسليته، وعشاءه الأخير؟!
- ما قصدك؟
- لا شيء، لا شيء.

قلتها وضحكت قليلًا على هزلية أفكاري، بينما تابع الطبيب النظر إليّ باستغراب، قبل أن يعيد قراءة بعض الكلمات من الورقة مجددًا. جربت السؤال عنها في السيارة لكنه أبى أن

يخبرني. كما اعتقدت أنها مجرد تعاويذ. أوصلت الطبيب إلى مكان عمله ثم عدت باتجاه المدينة

لم يكن هناك أي ظهورٍ للقاتل، لم يصلني أي تقرير جديد الهدوء قبل العاصفة، هو ما كان عليه الأمر. استمررت بالقيادة حتى إحدى محطات الوقود، يكاد وقود سيارة الدورية أن ينفد، ركنت السيارة بهدوء جانب إحدى المضخات. في الداخل يوجد ركن لبيع الغذائيات وبعض الأدوات الأخرى، لا أعلم كيف ضعفت تلك اللحظة، ووجدت نفسي أشتري للمرة الأولى علبة سجائر. كنت بحاجة لتفريغ غضبي بشيءٍ ما، حتى على حساب صحتي الشخصية، بمعرفتي الواسعة عن مضار هذه الآفة اللعينة.

انطلقت مجددًا صوب المدينة، كان الليل على وشك أن يبط لذا أسرعت قليلًا، فالعتمة في هذا المكان موحشة، وتنشط الحيوانات البرية في الليل، لا أريد أن أصطدم بوحش أو طريدةٍ ما تعيق تقدمي. القمر تلك الليلة كان مكتملًا، الجو ملائم للاستغراق في التفكير ووضع خططٍ من أجل الغد.

ما أن وصلت إلى حوز، حتى ركنت سيارتي قرب أحد التقاطعات، وأعدت المقعد إلى الخلف لأخذ قسط من الراحة، فأمامي غدًا يوم شاق، لكن قبل أن أغلق عينيّ جاء اتصال من شقيقي.

- مساء الخير، كيف حالك؟
- أنا بخير، هات ما عندك، يكاد يغمى عليّ من شدة التعب.
- لن أطيل عليك، لكن قلبي غير مرتاح من عدة أيام، أخشى وقوعك في مشكلة ما.

ضحكت قليلًا، إنها أسطورة التوءمين التي تقول إنها يستطيعان قراءة أفكار بعضهما بعضًا، والشعور بآلامهما، لكن لم أكن يومًا كذلك، بل دائمًا ما كان الجفاء رابطنا الأخوي المقدس. لا أدري لماذا خطر الآن في ذهن عدي أن يخبرني بأحاسيسه.

- لا تقلق أنا بخير، أوصل تحياتي إلى أمي وتصبح على خير.

قلت وأنا أتثاءب قصدًا حتى أنهي المكالمة سريعًا، وهذا ما حصل، حيث عدت مجددًا لأخذ وضعية النوم وأغمضت عينيّ حتى صباح اليوم التالي.

صحوت على صدى سيارة تمر بجانبي، كان الوقت أول الفجر، حين توجهت إلى حيث يوجد جامعٌ قريب. في اليومين الأخيرين كنت بعيدًا عن الصلاة، وأشعر بالتقصير وبتأنيب الضمير لانجرافي خلف وساوسي، توجهت ما أن النهيت إلى نقاط المراقبة للإشراف على الدوريات المنتشرة في أكثر من موضع، وتواصلت مع الملازم مجد لتنسيق الجهود وتقسيم العمل في أكثر من قطاع، ليتم التدخل بشكل سريعٍ فور حصول طارئ.

الشمس اليوم مثل بقية الأسبوع المنصرم، تشتد حرارتها ما أن تلامس خيوطها الأرض، لكن الأبراج المرتفعة تخفف في فيئها عادةً الحر الشديد. كنت أعبر خلال الشارع الواصل إلى منتصف المدينة، الجميع حذرون، الحركة خفيفة للغاية أيضًا، لا أحد يخرج إلا للضرورة القصوى، تم إبلاغ السكان بوجود قاتل متسلسل طليق، لم أرد أن ينتشر الخبر هذه الطريقة، لكن القيادة لها رأيها، حيث يحاولون تجنيب

المدينة ضحيةً جديدةً، كما أن الزحام يمكن أن يخفي القاتل ويجعله يتسلل إلى عدة أماكن دون أن يتمكن أحدٌ من إيقافه.

لكن بالنسبة لي ولأنني كنت أريد خروجه بأي ثمن، لم أرَ أمامي أي حلٍّ آخر، والآن سينتبه جاسم لخلو الشوارع من سكانها، ويفضل الاختباء ولن يكون الإيقاع به بالأمر الهيّن.

- على جميع الدوريات القريبة من فندق الأصيل التوجه إليه.

جاء البلاغ من إحدى الدوريات هناك.

- ماذا لديك؟
- وصلنا بلاغ عن حدوث مشاجرةٍ عنيفة في الفندق، وتم طلب سيارة الإسعاف.

لا أعلم كيف وصلت إلى الفندق، كنت أقود بسرعة هائلة وأنا أشعل صفارة الإنذار لإفساح المجال أمامي للعبور، التحذير الذي جعل الشوارع فارغة كان مفيدًا للغاية لي.

اصطفت عدة سيارات أمام الفندق قبلي، لذا نزلت على وجه السرعة إلى الداخل، حيث صادفت أحد الشبان الذين يعملون في الفندق، بينما غاب من يكون خلف مكتب الاستقبال. صالة الانتظار كانت فارغة، لا أحد يمكن أن يدلني إلى موضع المشاجرة.

- من هنا يا سيدي.

خرج من ممرٍّ جانبي عنصر من الدورية، وأشار إليّ بالاتجاه خلفه. لا أعلم ماذا يوجد في الخلف، الدرب معتم قليلًا مع ضوء قوي في الخارج، حيث توجد فسحةٌ واسعة كما يبدو.

التقيت في طريقي بأحد المسعفين ويداه ملوثتان بالدماء، ازداد قلقي مما قد أراه، وما أن عبرت الباب الخلفي حتى جمد الدم في عروقي للحظة. عدد الضحايا كبير، ولا مؤشر على نجاة أحد منهم. اخرجت سيجارةً لأهدئ من روعي قليلًا، ثم قمت بالسؤال عن المسؤول في الفندق، حيث انطلق شرطيان للبحث عنه أو عن أي شخص يمكن أن ما يشرح ما يجري هنا.

على العشب الأخضر تم تهشيم وجه شخصٍ بما يبدو حاسوبًا محمولًا، وعلقت قطعٌ صغيرةٌ بلاستيكية تحت جلده، بينما تم ذبح اغلب الضحايا بسكينٍ كبيرٍ كانت لا تزال في يد الشاب الضخم المقتول والمرمي على العشب فرق شخص آخر. شكّل مشهد الموت هذا جبلًا من ثماني ضحايا، أغلبهم من عمال الفندق.

عاد شرطي بعد قليلٍ رفقة فتاة يملؤها الخوف والبكاء، والتي ما أن شاهدت مسرحية القتلى والدماء الغزيرة التي لونت الفسحة بالأحمر، حتى انهارت وفقدت وعيها.

- أحضر المسعف إلى هنا فورًا!

قلت للشرطي الذي انطلق في الحال، وعاد مع المسعف بعد ثوانٍ، ليساعدها على المضي إلى صالة الانتظار في الداخل.

بدأ المختصون بجمع الأدلة، بينما ولجت إلى الداخل وأرسلت العناصر لجلب جميع النزلاء وتفتيش الغرف، ضربات قلبي متسارعةٌ للغاية، أشعر أنني قريبٌ جدًّا من القاتل اللعين لكنني أحاول تمالك أعصابي قدر الإمكان.

بعد إرسال الرجال للتفتيش انطلقت خلفهم للمساعدة، وعندما وصلت إلى الغرفة رقم 4233 حاولت فتحها لكنها كانت مقفلة، أخبرني موظف الاستقبال الذي يرافقني أنها معطلة ولا يعلم مكان مفتاحها، حيث إن المسؤول عن تسليم المفاتيح قد لقي حتفه.

في تلك اللحظة جاءني أحد رجالي مسرعًا وأبلغني بضرورة بالاتصال بالملازم مجد الذي يحاول التواصل معي لكن بطارية جهازي نفدت، فاضطررت إلى المغادرة والشك يملأ قلبي بوجود خطبٍ ما في هذه الغرفة.

بعد الاتصال وتبادل آخر التحديثات مع مجد، عممتُ على العناصر المنتشرين في المكان، حصار الفندق من الخارج، مع تعليماتٍ مشددةٍ على إطلاق النار إن شاهدوا جاسم يخرج من الباب أو من محيط المكان.

لم يكن الفندق حينها مزدحمًا. قدِم إليّ بعض النزلاء حيث باشرت التحقيق معهم، واحدًا تلو الآخر، إلى أن وصلت إلى رجل خمسيني. كان رسامًا فوريًّا محترفًا في هذا المجال، ويجلس في الغرفة المطلة على الحديقة، وقبل أن أبدأ تحقيقي معه، قدم لي صورةً للحادثة.

- قمت برسمها حين بدأ الصراع في الأسفل

تمعنت في التحديق في الصورة، وأنا أفكر كيف له أن يجلس ببساطةٍ ويقوم برسم جريمة بهذا الوضوح، وهذه الدموية. إلا أن السؤال الأكثر أهمية هو أنه قام برسم عشرة أشخاص في الصورة، ولا يوجد في مسرح الجريمة سوى ثمانية، لا يمكن أن يخطئ في إضافة

شخصين عن عبث، لذا عدت لسؤاله عن سبب رسمه لهذا العدد.

- قام المسعفون بنقل أحد الجرحى قبل وصولك يا سيدي.

قال الشرطي، وقلل من حيرتي بعض الشيء لكن لا يزال هناك جزءٌ لرجل يرتدي ثوبًا أبيض ويظهر نصفه تقريبًا في الصورة، لذا وجهت له السؤال مجددًا محاولًا تحديد هوية ذاك الشخص. لاحظتُ ارتباكه الفجائي وهو يردد مرتين أنه كان متوترًا، وربما قام بإضافته عن طريق الخطأ.

لم أصدق كلماته، خاصة بعد أن أكد لي أحمد قدرة جاسم على دفعه ليقول ما يريد، لذا توجهت إلى الطابق الأعلى للبحث داخل الغرف، التي تم ترك أبوابها مفتوحة للتفتيش. لم أدع أحدًا يبحث غيري، حيث أمرت الجميع بالوقوف في الخارج تحسبًا، وكنت أعبر الباب تلو الآخر، على طول الممر وعلى الجانبين، إلى أن وصلت إلى الغرفة ذات الرقم 4233 والتي لا تزال مغلقة. وضعت يدي على مقبض الباب وجربتُ فتحه مجددًا بالقوة، وأنا حذرٌ للغاية. كنت على وشك فعلها، إلا أن اتصالًا قاتلًا باغتني قائلًا:

- قُتل الدكتور أحمد في فراشه!

معلنًا جاسم تحديه الرسمي للشرطة وللمحقق سامي........

أطلق العنان لخيالك وانغمس في عالم «أنا لست وحيدًا»، حيث كل صفحة تقربك من النهاية المثيرة، اكتب توقع

النهاية، فمن يدري، ربما تكون أنت من يرى النهاية من منظور جيد ومختلف!

@U80IH

(رسالتي الأخيرة)

الجزء الخامس